



رَمَضَانِيَّاتٌ فِيلَسُوفِيَّاتٌ

محمد حسنة فني



دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع



المَكْتَبَةُ الصَّغِيرَةُ

(٥٥)

رَمْضَانِيكَ يَا فِيلَسُوفَ

محمد حسيه فقي

دار الفؤاد

للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ ~ ١٩٩٣م



دار الرفق بالحي

للشؤون المطبوعة والتوزيع

ص.ب : ١٥٩٠ - الرياض ١١٤٤١ - تليفون : ٤٧٨٨٨٣٣

تلكس : ٤٠١٣٦٧ (الفرات) - فاكسميلي : ٤٧٩٤٣٢١

المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ الفيلسوف

هو رجل يعيش في دنياه منزوياً مضموراً لا يبالي بالأضواء والضجيج ولا يعبأ بالمجد والشهرة .. دنياه كتبه التي يعكف عليها كما يعكف العابد في محرابه ! وهو ما يخرج من هذه الدنيا إلى دنيا الناس إلا راعماً وبمقدار ما يتطلبه السعي للرزق والتماسه فحسب . وقد يستغرق أحياناً في هذه الدنيا التي تطالعه من أقطارها أفكار الفلاسفة والعلماء والفنانين والشعراء فيحلم ويهوم ثم يحملق في الفضاء إلى غير منظور كما يُحملك الوسيط في وجه منومه قبل أن تستغرقه الغيبوبة .. وأحياناً كان أهله يخرجونه من غيبوبته هذه قسراً ليأكل أو لينام كما يأكل الناس وينامون .. فيمشي معهم متثاقلاً كارهاً كأنما هو يجاملهم بما يفعل .. وكأنما لاحق لهم أن يقسروه على هذه الضرورات التي لا بد منها للناس ليعيشوا .. وكان يؤثرني بصداقة على قلة ما يؤثر في هذه الحياة .. وكنت أعتز بهذه

الصداقة معترفاً فيما بيني وبين نفسي وفيما بيني وبين الناس
بأنها من أغلى الصداقات وأندرها لأنها صداقة تقوم على الحب
الصريح والفهم المتبادل ، ماتعرف الغش ولا المواربة لأنها جبلت
على الطهر والبراءة فهو كالماء الصافي ما تنكر عليه أن يريك
نفسك كما هي دون تزوير ، ولا تنكر عليه صفاءه وقدرته على
الري والإنعاش . ولقد كنت ألومه حيناً على هذه العزلة والتقوقع
وهو الذي لو برز إلى الحياة لاختفت أمامه أمجاد كثيرة زائفة
كما تختفي النجوم أمام ضوء الشمس الساطع .. فكان يبتسم
في هدوء مشير ويقول لي إنك لا تصدر فيما تقول عن إيمان
وعقيدة ، فإنك لتعرف من زيف هذه الأمجاد ما أعرف ، وإنك
لتعرف أربابها ممن يمتلون ويتحركون على المسرح والشاشة كما
يشاء لهم المخرج لا كما يشاؤون هم . أفتريدني أن أكون ممثلاً
وأنا غير قادر على التمثيل ولا مفضل عليه ؟ ! وأنت ما الذي
جعلك تقتحم وأنت كاره . إنك لتضطرب في دنيا الناس وتجاهبه
الحياة والأحياء سحابة نهارك ثم تؤوب إلى بيتك وقد عسعس

الليل وأنت خائق كظيم . فما تجدد برد الراحة إلا بين صبية وأهل
تعرف في وجوههم معنى الحب والحنان وقد افتقدته في وجوه
كثيرة باسمه ، وفي أذرع كثيرة حاضنة ، وفي السنة كثيرة رطبة
فلم تجده إلا أشباحاً لا روح فيها ولا صدق .. أشباحاً تذكرك
بالموت أكثر مما تذكرك بالحياة .. أشباحاً تفرّ منها وقد ملئت
رعباً إلى عشك الأمين لتناغي الصبية ولتعائش الأهل .
ولتلمس بعد ذلك نصيباً من هناء الروح والفكر في هذه الكتب
التي يقول عنها أبو الطيب إنها خير جليس !! « إنك لتفعل هذا
وأنت كاره له ساخط عليه ، وتفعله لأنك تخيرت لنفسك هذا
النمط من العيش » فلن تستطيع عنه حِولاً بحكم العادة
المتسلطة فلم تريد أن تجرني إلى هذا العناء ؟ واتسعت
ابتسامته فما كان يملك أن يزيد على الابتسام حتى لكان الدنيا
قد حرمت من نعمة الضحك فأعطته منها بتقتير شديد .. كان
الابتسام أقصى مداه !! وقال لي إنني لأتصورك - يا صديقي -
كالمنحدر من علٍ يود أن يتنهد في مشيه ولكن طبيعة الانحدار

تغالبه وتأبى عليه الاتئاد وتدفعه إلى أن يهرول بعجلة فما يشعر
بنفسه إلا وهو في القاع .. ولقد مررت بهذه التجربة القاسية مرة
فأكّيت على نفسي ألا أعاود الكرة فما في القاع
ما يستهويني .. فلقد سمعت به لفظاً شديداً أصم أذني وأثار
أعصابي وأنا رجل ضعيف السمع واهن الأعصاب فما علي من
تثريب إن وقّيتهما السوء بهذه العزلة الهائلة المانعة . قلت له :
ولكن القاع هو القاعدة ، والقاعدة هي المنطلق إلى القمة ، وإذا
كنا ألا نحمل النفس على مكروها لتشهد ما في القاع وتندمج
فيه دراسة واستقصاء ، وتقويماً وتوجيهاً .. وعلاجاً وإبراء فما
في القمة ما يشوق ..إننا لن نتذوق ما في الحياة من طعم حلو
إلا بعد أن نتذوق ما فيها من طعم مرّ .. المصلحون في حياتنا
هذه يضطربون في غمار المكارِه والأقذار .. ويعاشرون السفلة
والأوباش لا من أجل أنهم يحسون في هذا الاضطراب وهذه
المعاشرة متعة .. أو يجنون نفعا .. فهم على النقيض من الأمر
.. يألمون ويحسرون .. ولكنهم إنما يريدون الارتفاع بهذه الأنماط

البشرية السفلى إلى مستوى أعلى .. ويريدون تصفية أجوائها
من الأقدار والمكاره فيصيبهم من هذه الإرادة الإنسانية السامية
كثير مما يكرهون وقليل مما يحبون .. وفي هذا القليل لذتهم
وعزاؤهم عما يصيبهم من رشاش مؤذ بغيض .. ويسمع مني
صديقي الفيلسوف ويتسمم .. فلقد كان يعرف أنني إنما أريد
استشارته إخراجهم من دنيا الصمت والسكون وإنني أعرف أنه
جاهد حتى كاد أن يستشهد .. وأنه خرج من رجفة المعركة بجراح
تسيل .. ويقول بعد لأي وتفكير .. يا صديقي اللجوج لقد
وعظتني الحياة بمالم تعظ به إلا القليل من الرجال .. فلن
يغويني بعد اليوم خداع ولا تضليل .. ولن يستهويني بريق ولا
لألاء .. لن أراهن على جواد خاسر فما عاد في جيبى ما يغريني
بالمقامرة ! ولقد أخذت بنصيبي من المعركة فما يلومني في
الوقوف وراء الصفوف إلا غبي أو جاحد .. ولرب وراء خير من
أمام .. إن الناس في غمرة الصراع لا يبالون بمن يسقط ولكنهم
يهتفون لمن يفوز حتى ولو كان أولئك الساقطون إنما سقطوا في

المعركة وهم يناضلون عنهم ويقاتلون في سبيل مثال وعقيدة ..
وحتى لو كان أولئك الفائزون قد فازوا بجبن ونزالة .. وفازوا
ليسيطروا ويستغلوا لا ليصلحوا ويفيدوا .. إنني أقف في الخلف
وأنا أشاهد المعركة .. وأشهد جرحاها وصرعاها وما أملك من
الأمر من شيء إلا أن أضمد جراحاً أو أوارى سوءات وليس هذا
بقليل عند المنصفين .. ولأن أكون هكذا أنفع بما أستطيع خيراً
من أن أكون أحد وحوش الغاب يحكمني بقانونه فما أملك إلا أن
أفترس أو أكون فريسة .. إنني لست وحيداً في هذه العزلة التي
آثرتها لنفسى .. فهناك سواي ممن آثروا ما آثرت .. يرتضون
عزلتهم فما يختلطون حتى بأضرابهم المعتزلين .. ولئن ساورك
ظن في أن هذه العزلة سلبية ما تعمل ولا تفيد فإنك لعلّى خطأ
مبين .. فإنها لغزلة مثمرة تمتد أشعتها إلى المجتمع من بعيد ..
هي عزلة تحب المجتمع ولكنها لا تختلط به .. وتشفق عليه
ولكنها تكتفي بعلاجه .. وهي لن تقلق المجتمع لأنها لا تحاول
مزاحمته فيما يحرص عليه من عروض ومطامح .. إنك لن تشير

الناس إلا متى نافستهم فإذا عرفوا منك الزهد في هذه المنافسة
فإنهم سيمنحونك حبهم وإن كان هذا الحب لن يجدي ولن يفيد ..
قلت : أفترى يا أبا سعيد أنك على عزلتك وانطوائك قد تجدي
هذا المجتمع بما لا يجدي عليه الكثير من أولئك المنغمسين في
تياره .. البارزين في صفوفه ؟! قال : أجل .. إنني لأرى هذا
وأرى أنه الحق .. إنه تجربتي الوحيدة الناضجة في حياتي فما
أريم عنها بحال .. قلت فإن لي موعداً معك .. ما أرى أنك
ستخلفه .. وإنه لتدب في نفسي شكوك وحقائق وأوهام
ووقائع .. فما أطيق التمييز بين الشك والحقيقة والوهم
والواقع .. ولعلني واجد عندك ما يشفي الغليل ويروي التائه
إلى المهيح فهل أنت فاعل ؟! فهزّ رأسه هزة فهمت منها أنه
سيحاول إرضائي ما وجد السبيل إلى الإرضاء .. وافترقنا على
موعد ..

المجلس الأول :

وجئت الشيخ في الموعد المضروب فأبصرت به ينظر .. يا له من أعجوبة ، لكأنه في الدقة والإتقان ظاهرة من ظواهر الطبيعة ما تخطىء موعدها قيد شعرة ولو أخطأ الناس الحسبان .. ولقيته يهمهم هممة إعجاب فقد فرغ لتوه من قراءة قصة للكاتب الروسي الكبير « تولستوي » أثار فيها مشكلة معقدة ثم حلها بقلمه البليغ ونزعته الإنسانية .. والإعجاب يضىء وجه الشيخ فتكاد تنظر شيئاً مجسداً لا معنى له أثيراً .. ولقد كان تولستوي من الأغنياء وأصحاب الأراضي الواسعة فتنازل عن ثروته وأراضيه للفقراء والفلاحين وعاش فقيراً راضياً بفقره سعيداً به . وأحبه الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم لأنه طبق نظرياته وآراءه التي كان يدعو إليها تطبيقاً عملياً على نفسه فعرفوا فيه صدق المبدأ وعمق العقيدة وحرارة الإيمان .

وقال لي الشيخ ماذا ترى في هذا الإنسان الرائع ؟ إن كثيراً من الناس يرمونه بالحماقة ويرون فيما فعل جنونا . فإن

المادة في نفوسهم أغلا من القيم وأعلق بالطباع .. قلت له وأنا أحاوره وأجره إلى النقاش .. ولقد يكونون على حق في نصف النظرة على الأقل .. فإن من الحق ألا تحرم نفسك وذويك لتمنح الناس . فإن كنت ميالاً للبر فإن برّ النفس والرحم لهو في القمة من ألوان البرّ وتحت هذه القمة تريض بقية الألوان . فليس من البر أن أوتر الناس على نفسي وأهلي وإنما أعطيهم ما يفيض .. ثم لماذا نكدح في الحياة إن كنا نتنازل عن ثمار الكدح لسوانا ولا نتذوقها ؟! أليس من حقنا أن نطعم ونختار مما جاهدنا وأنفقنا العمر في سبيل الحصول عليه ؟! أو ليس من واجب أولئك الذين نسميهم المساكين أن يكدحوا ليحصلوا ولو على نصيب يكفيهم مؤونة العيش ويدراً عنهم غوائل الفاقة ؟! وإذا كان من القسوة أن نمسك أيدينا عن المحتاجين فما نخفف عنهم وطأة الحاجة ، فإن من العته أن نضع أنفسنا مكانهم بعد أن وصلنا إلى مستوى كريم من العيش لنرفعهم إلى مكاننا وننحدر نحن إلى مكانهم وقد سعيننا وقعدوا وكددنا وكسلوا ؟! فشزرنى

الشيخ بنظرة تكاد تكون لهباً يصعق .. وقال لي : يا صديقي
إنك لتتلاعب بالألفاظ ويستهويك الجدل .. إن تولستوي قد خلد
بما فعل ، وفني أولئك الذين كانوا ينظرون إلى البرّ الإنساني
الشامل العميق نظرتك هذه القصيرة العمشاء .. إن تولستوي لم
يمت جوعاً حينما أقدم على عمل إنساني من طراز ممتاز .. فلقد
كدح وعاش وكتب لنا أروع روايات ، وخطط لنا بفلسفته
خطوطاً لا حبة لو سلكها البشر لما استمر بينهم الصراع في سبيل
لقمة العيش .. ولو أنه اختار من سبل البرّ أيسرها فأعطى نفسه
وذويه أكثر مما أعطى الناس لما استطاع أن يصل إلى هذه المنزلة
الرفيعة التي يحتلها بين كبار الكتاب والفلاسفة .. وإذن
لألهمته الثروة والجاه عن السمو والتحليق .. إن قيمة تولستوي
العظمى هي في هذا الإيثار وهذا التخفف من أثقال المادة
والتححرر من أهواقها فهو إنسان قبل أن يكون كاتباً أو فيلسوفاً
.. وفي الدنيا أغنياء كبار .. أترى منهم من نال نصيباً من
الخلود إلا بمقدار نصيبه من الخير والرحمة ؟! إن غالبيتهم

يظهرون على السطوح كالفقاييع ثم يتلاشون فما تحتفظ لهم
الإنسانية بمجرد الذكرى إلا أن تكون من أسوأ الذكريات وأدعاها
إلى المقت .. ولرب كلمة كانت ذات روح خالد ما يفنى ، ولرب
عرض باد واندثر وما أبقى سوى الإثم والتهجين فأيهما يختار
اللبيب ؟! وبعد .. فلست أود أن أجادل فيما أعتقد إلا بمقدار
ما أستيقن أنني أجادل من يحرص على الحقيقة لا من يحاول
إظهار براعته في الجدل والحوار .. ولقد عرفتكم من رواد الحقيقة
ومفتونيهما . فما لي أرى اليوم بك نزعة إلى أن تحمي بجدلك ما
لا تعتقد ؟! أتراك آنت مني ضعفاً أهدتنيه سن طاعنة ،
فحملك هذا الضعف على أن تقاويني بالحجة الغالبة ؟! ومس
يدي بحنان عرفته وقال إن الشيخوخة وعاء الحكمة وإن ضعفها
لقوة .. إن كل يوم يمر بك يضيف تجربة إلى تجاربك الشتيتة ،
وكلما ازددت وعياً كلما أفدت من التجارب علماً جديداً يقشع
عن عينيك الغشاوات ، ويفضي بك إلى رحابة وعمق وشمول .
فاحذري يا صديقي أن تحاول افتراس مفترس فلقد تبوء

يومئذ بالخُسران وأنت تنشد الريح ، وما أخالك إلا فطنًا لا يطعن
الهواء فيكل ساعده ويظل الهواء هو هو مادة الحياة التي لا ينال
منها الطاعن ولكنه يتخاذل وينال منه الإعياء فيما يرد إليه قواه
إلا استنشاق الهواء .. ولله في خلقه شؤون .

المجلس الثاني :

ووافيت الشيخ ثانية فإذا هو كعهدي به بين أكداس من الكتب يقرأ تارة ويفكر أخرى ويكتب ثالثة هوامش دقيقة على أطراف الكتب وبين ثنايا السطور . فألقيت عليه السلام ولكنه كان ساهماً يهوم فلم يرني ولم يسمع تحيتي .. ولم تكن هذه الاستغراقاً بالجديدة عليّ فقد كان الشيخ ينام في يقظته أحياناً فما تعرف أفي يقظة هو أم في منام ؟! ولقد داعبته مرة فشبهته بالذئب الذي وصفه الشاعر العربي بأنه ينام بإحدى مقلتيه فهو يقظان نائم ؟ فابتسم وقال لي أن حياته تمتزج فيها الصحوة بالأحلام ، وأنه لم يشعر قط أنه مستغرق في صحو أو غيبوبة ! فقلت له مداعباً لو أن الناس جميعاً مثلك لاختل نظام الكون .. ولما قامت حضارات يتفياً ظلالها ويخرجون بها من دنيا الغاب إلى دنيا المدنية .. ففكر قليلاً ثم قال : هذا قليل من الحق وكثير من الباطل .. فما زلت تنمق الكلام ثم تزجي به إليّ باطلاً يتشع بالحق .. فإذا ما نزعته وشاحه بدا لك زيفه وتفاهته .

الدنيا - يا صديقي - تحتاج لتسير سيرها المرسوم إلى أنماط شتى
من ناس وألوان شتى من الخصائص والطباع .. فكما أنها تحتاج
إلى العامل والزارع والكادح بوجه عام فإنها تحتاج إلى ذوي
المشاعر والأفكار .. إن هؤلاء هم الذين يرسمون لأولئك مناهجهم
ويمهدون سبلهم .. تصور دنيا خلت من العلماء والمفكرين
والشعراء .. أي دنيا بغیضة هي ؟! وأي نقص وكرال
يعتورانها ؟! إن الحق أن يأخذ كل إنسان مكانه الصحيح ..
فلن أغني عنك في محلّك ولن تغني عني في محلي .. وليس
الاضطراب الذي نشاهد أحياناً في موازين الحياة إلا نتيجة
طبيعية لاقتحام بعض الناس ما ليس من حقّه أن يقتحم من
ميادين لم يهياً لاقتحامها .. لإحجام بعض الناس عن غشيان
هذه الميادين وهم أهلها الذين خلقوا لها .. فلو أنك وضعت
الفيلسوف - مثلاً - مكان الميكانيكي لكان أخيب الناس وهو من
هو عقلاً وحكمة .. والعكس صحيح بجملته وتفصيله .. فمن
الخير للحياة والأحياء أن يقوم فيهم من هو مثلي يؤثر العزلة كما

يقوم فيهم من يؤثر الضجيج وتبهره الأنوار الكاشفة .. فلماذا
يعتب عليّ ما أنا فيه أخو الحقيقة ؟! ولماذا لا تلوم نفسك وأنت
امرؤ بين بين .. نحن إلى العزلة المفكرة فإذا بلوتها أمسيت في
قلق يتجاذبك الحنين إلى المجتمع والضوء فما تستريح حتى
تخالط الناس وتنغمس في حياتهم .. فلست بالمعتزل ولا
المخالط ؟! قلت له فلعلي نمط خاص من البشر يتميز بالفضيلتين
ويؤثر الحسنيين ؟! قال كلا .. إنه ليحزنني أن أصارك برأيي في
هذا النمط الذي يشبه ذلك الغراب المتأرجح بين مشيتي القطا
والحجل .. فإنني لأؤثر الأصالة الذابلة على الهجانة
المتفتحة .. على أنني سأنصفك فأنت عبد طبعك وإن نفسك
لتنازحك إلى دنيا الفكر والتأمل والوحدة .. ولكنها تستخذي
أمام مطالب الحياة وبها رجها فما تملك إلا الانصياع .. إن
اصطفاءك لي من بين الأصدقاء ونزوعك إلى عشرتي على ما
فيها من جهامة وجفاف لهو الدليل المقنع على أن في نفسك
زاوية لم يصل إليها الزيف ولم تحرفها الغواية .. وأنا ؟ إنني

لأقيم الشعور في أحكامي المقام الأول فليس تستميلني مجاملة
ولاتودد ما دام شعوري يملئ علي أن أحذر وأحترز .. وما دام
هذا الشعور يطل بعين البصيرة على الدخائل والأغوار فيستشفها
ويتبطق سرائرها .. ولقد اصطفتك فأنت حبيب إلى نفسي قريب
إلى عقلي .. ولم يخدعني شعوري فيك فإنك لعلى خلق وإن
فسرتك الحياة على ماتكره .. فدمدمت بثناء وحمدت على ثقة ..
وإن للشيخ في نفسي لمنزلة ماترام .. فليس من يعرف فضله ..
ومن يقدر علمه مثلي .. قلت له : وقى الله شيخنا السوء ومدد
لنا في عمره وأنالنا من برّه فلئن تجاوزت في حديثي معه حدود
الأدب فما ذاك إلا لإدلال مني عليه .. وحظوة عرفتها
فاستثمرتها .. وما أتطاول عليه وأنا أعرف قدر نفسي أمام
قدره .. ولئن لم يفسح لي من حلمه فسأتضاءل وأنكمش
وأرعوي وأقلع .. فهل إلى عفو من سبيل ؟ قال الشيخ فإنك
لتعلم أنني واسع الصدر على من هم دونك مودة وأدباً وإنك لتعلم
أنني ما أضيق بالجدل يستهدف وجه الحق ويسعى إلى المعرفة ..

وإنك لتعلم قبل ذلك وبعده أنني أراك بمنزلة الشقيق والولد ،
وأنني لا أطيق لك جفوة ولا أستطيع عنك فراقاً .. فزد بهذا
علماً إلى علمك وتحديث في غير ما خرج ولا إشفاق .. فأفرح
روعي وتطلعت بعد عبوس .. وقلت للشيخ لقد أرحتني أراحك
الله .. وسألني عليك بأسئلتني التي تلوب في صدري فما أجد
لها جواباً . وسأظفر منك بالحكمة الصريحة والصراحة الحكيمة
وسأبدأ هذه الأسئلة بسؤال عن قواعد الحكم الصالح وأركانه
ومسؤولياته .. فإن العالم حولنا ليضطرب في متاهات ويخبط
في دجنات .. وكل جانب من جوانبه يدعى لنفسه الرشاد وينسب
لغيره الفساد !! ولقد اختلط عليّ الرشاد بالفساد فما أدري -
في غمار هذا الطوفان من الدعاوى - ما آخذ وما آدع فأترُني
السبيل أنار الله من بصيرتك وسدد من خطاك .. فلعل
مصباحك هذا يهدي إلى الحق بعد الضلال .

المجلس الثالث:

قال الشيخ بعد صمت ظننت أنه لن ينتهي .. فإنك لتبدأ بقصوى درجات السلم قبل دنياه .. وإنك لتريد مقطع الحق وفصل الخطاب في قواعد الحكم الصالح وأركانه ومسؤولياته وهذا الحكم قمة فلماذا لا تبدأ بالقاعدة ؟

إن الحكم الصالح هو آخر مراحل نضج الشعوب ، وهولن يتأتى إلا بعد حرب يعقبها سلم وسلم يعقبها حرب تسقط فيها ضحايا ويطيح شهداء.. فكل أمة تبدأ بالغاب وتنتهي إلى الحضارة .. تمارس أنماطاً من الحكم في تدرجها الحضاري يعبث بها حيناً فتستسلم لأهوائه وتخضع لأحكامه .. وتعبث به أحياناً حتى ينزل على مشيئتها ويسير إلى أهدافها .

ولقد يجوز الحكم وهو من الحضارة في الأوج ولقد يعدل وهو من البدائية في الصميم . فليس مرد العدل إلى مدنية أو تخلف ، وإنما مرده - في الأرجح - إلى عقلية الحاكم ونفسية المحكوم . فلقد يعرف الحاكم المتخلف بالبدية الواعية أن بقاءه

في الحكم واستمرار هيئته ونفوذه يتوقفان على ما يسديه إلى المحكومين من عدالة ورخاء تجعلهم سواسية أمام الحق ، وتطمئنهم على معاشهم فيجد كل منهم - في حدود نشاطه وطاقاته - لقمة العيش خشنة أو مترفة ، فالأمر سيان ما داموا في مأمن من غائلة المجاعة والحرمان . ولقد يعصف بالحاكم المتمدين فيجور وهو الفطن الحصيف استخفافاً منه بالمحكومين ، وثقة بقدرته على التطويع والتنكيل أوفهماً منحرفاً منه بأن هذه هي الحزامة القادرة التي لن ينصاع الناس إلا إليها ولن تتحقق له أهداف إلا بها .. ولقد تنجح هذه الطريقة إلى أمد ولكن لن يقدر لها أن تعمر طويلاً .. فمن طبائع الناس المتأصلة فيهم أنهم لن يجنحو إلى الرضوخ لمثل هذه الأساليب الظالمة إلا بمقدار ما يتأهبون لمناهضتها والتغلب عليها .. فأما نفسية المحكومين فإنها التي أملت للحاكم العادل - بالإضافة إلى بديهته الواعية - أن يسير على نهج كريم في الحكم لأنها تأبى السير على نهج سواه .. ولأنها توارثت العزة فضنت بها على الضياع ، وكدت

من أجل الرخاء فإن تطبيق استبداله بالشظف وقد بذلت من أجل
الجهد والعرق .. وهي هي بعينها النفسية التي مهدت للحاكم
الجائر سبيله إلى التسلط والافتئات حينما استنامت إلى الدعة
وأثرت السلام فمكنت له أن يتحكم وينحرف ويتصرف في
مقدراتها تصرف المالك المطلق يرى في تصرفه الشرعية التي
ليس من حق أحد أن يتصدى لها أو يخالفها ..

هي - إذن - قداسة أعطاها لنفسه ولم يعطها له أحد ،
معارضتها عنده من حماقة التي لا بد لها من روع .. فأنت ترى
معي - يا صديقي - أن التخلف لم يعق العدالة حينما صادفت
عقلية حاكم رشيد ونفسية أمة واعية .. وأن الحضارة - وحدها -
لا تحقق العدالة إذا انحرف الحاكم واستنام المحكوم .

وما أريد أن أشق عليك بسرد الأمثال ، إن هو إلا مثل
واحد من العرب القدامى .. ففي جاهلية العرب قبل الإسلام نجد
تمرداً على الظلم ومقاومة له ونرى ملامح منهما في قضية طسم
وجديس ، وفي قضية عمرو بن كلثوم مع أحد أقبال العرب

المتجبرين المنذر الأكبر عمرو بن هند .. وفي التاريخ الحديث ترى
طفغان حاكم وخضوع محكوم .. والحكم أيًا كان نوعه .. هو
خطة اتفق عليها الحاكم والمحكوم اتفاقًا غير مكتوب .. فهو
يأتي من القاعدة .. ومن القمة على السواء يشتركان فيه بأنصبة
متساوية .. فإن تجد حاكمًا إلا وهو يستوحي نمط حكمه من
نفسية أمته ولن تجد أمة إلا وهي التي تكيف عقلية الحاكم
وتجدد طريق حكمه .

ونحن هنا - يا صديقي - نتكلم عن الشيوخ لاعن الشذوذ
فلقد يقوم الحاكم العادل في عصور الحضارة والتخلف وفي الأمم
الواعية الخاملة .. ولقد يقوم الحاكم الظالم في العهدين وفي
الأمتين ، وهو شذوذ في طبائع الأشياء ما ينبغي القياس عليه .
ونحن هنا في الشرق نتهم بالروحانية . كما نتهم نحن
الغرب بالمادية ، وتركيب العالم يقوم على المادة والروح لا غنى
لإحدهما عن الأخرى ، على أن في الشرق أحيانًا مادية تفوق
مادية الغرب كما في الغرب أحيانًا روحية تفوق روحية الشرق .

والناس إنما يحكمون على السمة الغالبة ولن يستطيع العالم أن يعيش في المدينة الفاضلة التي تخيلها أفلاطون في جمهوريته بل لعله لا يطيقها إن هي أصبحت حقيقة قائمة فإنما نحن بشر نعيش على هذا الصراع الخالد بين الخير والشر والقوة والضعف والروح والمادة .. ولن نجد مجتمع ملائكة ولا مجتمع شياطين وإنما أنت واجد خليطاً من المجتمعين .

وأحسست أن التعب قد دبَّ إلى أوصال الشيخ فبادرته برجائي أن يبين لي في كلمة موجزة عن قواعد الحكم الصالح وأركانه فقال لي وهو يتشأب : إن قواعد الحكم - أيًا كان لونه - هي رأس الدولة والحكومة والشعب ، عليهم ينهض وبهم يسير فينتجه إما إلى الأمام وإما إلى الخلف .. أما قواعد وأركان الحكم الصالح فهم أولئك إذا تزودوا بالعدالة المتبصرة والوعي الحكيم وأما مسئولياته فهي ضمان العزة والرخاء والعدالة والمساواة وشكرت الشيخ وودعته إلى لقاء ..

المجلس الرابع :

وهذا بي الحنين إلى رؤية الشيخ فزرتة ، وكان يكتب هوامش صغيرة على كتاب يقرؤه ، وعهدي بهوامش الشيخ أنها تنفع حكمةً و فهماً وتصويباً .. ولكنه أغلق دوني الكتاب وهو يبتسم ، واستبد بي الفضول فسألته عما قرأ وما علق . فما كان يبخل بعلمه قط ، وما خرجت من عنده إلا وأنا أشعر اتساع عقلي وازدياد علمي فأنا في كل زيارة له أحتقب معرفة . ؟

قال الشيخ : إنه هامش لم يتم بعد .. وأنا ما أزال حائراً بعد في وجه الصواب لهذا الأمر ، وما أزال أفكر فيه لأهتدي إليه وما أحب لك أن تأكل من الفاكهة الفجة فاصطبر قليلاً لتتضح ولن يطول اصطبارك .. فأما أن يكون الكاتب على حق أو أن يدور في خلدي - على الأقل - أن الحق جانبه فاستكمل عندها هامشي وأنا مطمئن الضمير فإنما أنا خادم للحقيقة ما أعدوها قيد اظفور .

وزاد الشيخ في عيني إكباراً إن كان هناك مكان لمثل هذه

الزيارة ، وقلت له إذن فليأذن لي شيخني في أن أواصل ما انقطع من البحث في حديثنا السابق . قال : أما هذه فنعم .

وإني لأذكر - إن لم تخني الذاكرة الكليّة - أننا كنا نتحدث عن الفيلسوف جان جاك روسو ، وإنك كنت تؤثر نظريته القائلة بالرجوع إلى حياة الفطرة الأولى .. لشد ما يتشأم فيلسوف هذا .. إن الحضارة المثلى - يا صديقي - هي فطرة راقية ومهذبة . فما لم يطغ العقل على الروح ، أو تطغى الروح على العقل - في أية حضارة - فإنها بلا جدال خير من حياة الفطرة البدائية المفتقرة إلى التلوين .. والتطور .. إن هذه النظرية تعني جمود الفلك فما يسير .. والفلك سائر في طريقه ما يريم . والبشر يضيفون كل يوم إلى حيواتهم جديداً كثيره نافع وقليله ضار . فيكف يتسنى لهم أن يقفوا عند طور واحد ما يعدونه إلى ما هو خير منه وأسمى ؟! وروسو نفسه هل كان قادراً على أن يقدم للبشرية فلسفته الرائعة ونظرياته المتطورة لو لم يتجدد هذا الكوكب عن ذي قبل ؟! إنه لم يكن مستطيعاً - لو لا هذا

التطور - إلا أن يردد أفكار الفلاسفة القدامى كأرسطو وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس وبوذا ومن إليهم مع قليل من التحسينات والإضافات التي تطبقها العقول القوية النادرة .. وأولئك الفلاسفة الخالدون .. لو أنهم عاشوا في عصرنا هذا لتطوروا ولتطورت عقلياتهم وأحاسيسهم وأخلاقهم وحتى مفاهيمهم ومقاييسهم .. إن العقل القوي في كل العصور يستطيع أن يبدع ولكنه تطور من عصر إلى عصر .. فيهضم ويتمثل ويضيف ويجدد فيزداد إبداعه تفوقاً ولمعاً ..

ولقد كان روسو أحد العقول العبقرية بلا شك ، ولكنه كبشر لم يسلم من الأخطاء والمآخذ . واعترافاته - وهي من أروع ما خط يراع وتمخض عنه فكر - تعج بهذه الأخطاء والمآخذ التي يدونها هو نفسه معترفاً بها نادماً عليها خجلاً منها .. إنني أنصح لكل المشفقين أن يقرأوا هذه الاعترافات الصريحة الصادقة ، فإنها لصفات متألفة متسامحة تقف جنباً إلى جنب مع أعظم ما أبدعته العقل .. في كل العصور وأن روسو مجرد

نفسه من هذه الاعترافات من كل اعتبار ويقف بها عارية أمام
الناس بسموها وانحطاطها ، بجبروتها وضعها ، برقتها
وقسوتها .. بكل ما تخفل به النفوس البشرية من متناقضات ..
ونحن إذا قرأنا كتب روسو بدقة وتعمق فإنه سيتضح لنا أنه
يدعوا إلى الحضارة ويؤمن بها ويمكن لها الأرض . إن كتابه
«العقد الاجتماعي» هو من الكتب التي بذرت بذور الثورة
الفرنسية ، ومؤرخو هذه الثورة يعتبرون روسو أحد روادها الكبار
فلا يخدعنا من روسو ما نادى به في فترة من فترات التشاؤم
التي مرّت بحياته العاصفة أن العقل الكبير لا يدعو الإنسانية
إلى العودة بحضارتها القهقري ، ولكنه يبين لنا عيوب هذه
الحضارة ومباذلها لنحاذر ونصلح ونسير بالحضارة إلى الأمام
نقية كريمة ما أمكن الحضارة أن تكون كذلك . إنني أربأ بك أن
تنخدع بالظواهر المضللة وإن كانت دعوة روسو ليست إحداها .
فلقد يكون باطن هذه الظواهر هو الشرعية .. ويحضرني الآن
مثال بارز على ظواهر خيرة تراها فماتنكرها لأنها تتزمل بالمثل

العليا والتخرج الديني والدعوة إلى التقشف وقمع الشهوات ،
فإذا تعمقت في دراستها والتغلغل في دوائها تكشف لك عن
تعصب ذميم يقود إلى أسوأ المصائر ويرتكب في سبيل غاياته
من ألوان العنف والقسوة ما يبرأ منه الضمير ويندي له جبين
الإنسانية . وإنني لأستمبحك المعذرة على هذا الاستطراد الذي
انحرف بنا قليلاً بسبيله من بحث ..

ففي العصور الوسطى قامت في أوروبا جماعة «الكاملين»
وهي جماعة أخذت عن ماني دعوته التي تقول بأن الشر سيبقى
قائماً ما دامت هناك حياة ووجود ماديان ، وأنه لا سبيل
لانتصار الخير على الشر إلا بتدمير العالم المادي !! لقد ارتكبت
هذه الجماعة باسم الحرمان وتطهير الروح من أدران المادة ومن
ضروب الشر والعدوان ما يعجز القلم عن تسطيره .. ولقد
انخدعت بدعوتها هذه جماعات كبيرة من الناس ولاسيما في
فرنسا فماذا كان ؟! لقد رفرق الموت والخراب بجناحيهما على
كل بقعة من الأرض كان لهؤلاء الكاملين فيها كلمة وعليها نفوذ

وسلطان .. وانتشر الرعب في كل مكان من جلاديتها القساوة ..
ولم يرتفع كابوسها عن الصدور إلا بانهيار دعوتها بعد أن عرف
الناس أنها رحمة مبطنة بالعذاب . وبعد أن عانوا من هذه الرحمة
العجيبة ما عانوا من مصائب وويلات ..
وسمعت صوت الديك يؤذن بدنو الفجر فودعت شيخى .

المجلس الخامس :

أصابني إعياء فتخلفت عن موعد الشيخ فسأل ، ولما علم زارني .. فهرعت إليه من فراشي مرحباً وأنا أهمهم بشكران وأشعر بحبور .. ما أقل من يزور وما يزور ! وكان الشيخ يمشي مشية القطا على إيغاله في السن واحتماله من الأثقال .. وقلت له : أينع الله شيخي الحبيب بالصحة الدائمة ولا أقعده بفراش .. إنه ليطوقني بمنة بعد منة ، فما أعرف كيف أتخفف من أعبائها برد أو حمد .. قال : لا عليك ، فإن في زيارة المريض لأجرأ فكيف إذا كان المريض الصديق ؟! لقد تقاضيت الثمن الربيع من زيارتي هذه فاحتقبت أجراً وحظيت بطمأنينة وإيناس .. قلت : فإنني لأرجو من شيخي - وأنا أغبطه على شيخوخته الشابة التي لم يدب إليها الوهن - إن يدلني على اكسير الصحة فلعلني ألتبس عنده شيخوخته ترح في عزمة وشباب ؟! إنني في ربيع الحياة ولكن الخريف يداهمني كل آن بنذره المخيف ؟! ولست بأسف على ما انصرم من عمري ، ولكنني راغب في أن يكون ما

بقي منه بمنأى عن التدهور والانحطاط المبكرين ! . قال الشيخ :
فإن الأكسير الذي تنشده قائم في كيانك ما تحتاج إلى أن
تلتصقه من خارجه .. ففي كل جسم بشري بل وحيواني قوة
مدخورة تكفيه أن يعيش في كل أطواره عيشة راحة لو أنه
حافظ على هذه القوة ولم يبدها .. إنها الرصيد الذي يمدّ به الله
كل مخلوق حي يدفع به إلى الحياة لينفق منه برشد وتبصر أو
برعونة وعناء ! وإذا كان من الصحيح أن أطوار الحياة تختلف
بطبيعتها قوة وضعفاً لأن الشيخوخة ليست كالشباب ، فإن من
الصحيح أيضاً أنه من الممكن أن نحفظ بمقدار من القوة والصحة
يكفيها إلى آخر رمق من الحياة إذا نحن أحسنّا التصرف في
رصيدنا ..

وأحسست أن الشيخ يتدسس إلى نفسي بنظراته الثاقبة
فيكشف خباياها ويهتك مساتيرها ويعرف أنني أعاني من
عواقب الإفراط ، وأتني ما لم أتدارك أمري فإنني سأنهار ..
قلت له - وأنا أغض من بصري حياء - : لقد أصاب الشيخ

كعاداته كبد الحق ، ولسوف أنحو نحوه فما أسرف على حساب
رصيد ضعيف .

قال الشيخ : فإنني لأرجو لك هذا وإن كنت أظن أنك لن
تطبقه .. إن العادة المتمكنة كالطبع قوة وضراوة.. ولقد سرت
أمدأ طويلاً على نهج فلن تستطيع أن تنحرف عنه إلى سواء
بسهولة ويسر .. فأنت كالمدمن ما يشفيه من دائه إلا إرادة جبارة
وصبر طويل فعلى من يخالف هذه الأحكام أن يحتمل العقاب .
وإلا فما هي جدوى الاستقامة ؟! وما هي ميزة الفاضل على
المفضول .. وجزاؤه ؟! إن الاستقامة تكبد المستقيم من المشقة ما
لا يطيقه إلا الجبابة .. وقهر النفس وإرغامها على سلوك
السبيل السوي ليس بالأمر الهين .

وأولئك الذين لم يجربوا هذا الصراع لا يعرفون قسوته
وأهواله ، ولذلك فهم لا بد أن يدفعوا ثمن اعتزال هذا الصراع
أنهم أختاروا لأنفسهم السير في طريق معين فعليهم أن يسيروا
في هذا الطريق إلى النهاية ، فإذا ما أرادوا النكوص عنه فلا

مناص لهم من أن يعودوا القهقري في نفس الطريق وأن يتحملوا متاعب السير إلى الراء في وضع مقلوب حتى يصلوا إلى بداية الطريق الذي تتلاقى أطرافه بالطريقة الحديثة .

قلت للشيخ - وأنا ألهث من التفكير في هذا العناء المحتوم الذي سأتحشمه - ولكن المستقيم يكسب بالصراع النفسي مرتين .. والمنحرف يخسر مرتين ! أفيرى شيخي أن هذا من العدل في شيء ؟! قال : أجل . إنه العدل نفسه فالمستقيم حينما يجالذ في سبيل قهر النفس يرهقه الجلالذ في البداية ثم يتعوده فيغدو عنده أمراً ميسوراً وهذا هو الكسب الأول ؟ يناله .. يعبر على العناء وتصميم على الفوز .

وأما الكسب الثاني فهو في هذه الصحة المديدة في الجسم ينعم بها في شيخوخة وشباب ، وهذه السكينة المطمئنة في النفس يهنأ بها مدى الحياة فما يشقى بوخز ولا تأنيب .. أما المنحرف فإنه يخسر مرتين .. أولاها هذا التبديد الطائش في رصيده الإلهي حتى ينفذ قبل أوان فما تبقى غير الحسرة والألم

وثنتاهما ود الفعل المرير في العمل المندفع ما يكبحه لجام .. إن المنحرف قد يعجز وهو في ربيع العمر عما يمارسه طاعن في السن . وفي كل مرة يحس بعجزه ويشهد قدرة سواه يشعر بهم لا يطاق .. لأنه هم ينبثق من أغوار شباب كليل لاهف ، وصحة منزوفة مهدودة ! فأنا - مثلاً - قد لا أشعر بغصة ولا ندم إذا أبصرت شاباً يستمتع بما لا أستمتع به في شيخوختي .. ذلك لأن الشباب قدرة ، والشيخوخة عجز في ميزان الطبيعة ، ولكنني - على شيخوختي - قد أشعر بالغصة والندم حينما أبصر شيخاً في مثل سني يقوى على ما لا أقوى عليه .. إن معنى ذلك أنه قد أطاق في الشباب ما لم أطقه من موازنة قواه وقهر قواه .. أما أنت فإنك وأنت في شرح الشباب .. في إبان الظهيرة المتلظية .. تشعر بلا ريب بمرارة وجزع ، وحرمان وتضاعف المرارة والجزع من الحرمان ، حينما تبصر بشيخ مثلي يفوقك توقداً أو نشاطاً . إنه تفويض الطبيعة لهؤلاء الشيوخ الذين لم يسرفوا عليها في الشباب .. أليس كذلك ؟! قلت : بلى ولكنني

سأرجع القهقري في الطريق الشائك ، وسأحمل العقوبة العادلة
بصبر ، فلعلني أصل في النهاية إلى الطريق التي سلكت فأنعم
بشيخوخة ناضرة هادئة .. قال : افعل فإنك ستحمد العقبي .
واستأذن وودع ، فشيعته إلى الباب باحترام . وعدت إلى فراشي
أقلد مشية القطا .. وأشعر بالعافية تدب في أوصالي
وبالطمأنينة تتسلل إلى نفسي .

المجلس السادس :

وزرت الشيخ بعد ابلالي فرحب بي وأخذ يتغرس في
وَجْهي برضى واغتباط . فعجبت لما يفعل فقد كان من عادته أن
لا يثبت عينه في عيني محدثة إلا ريشما يغني حياء ..
وسألته : ما بال شيخي يحدق فيَّ كأن لم يرني قط إلا
العشية ؟! فابتسم وريت على ظهري وقال : لا عليك يا بني فإني
لأنظر مستمتعاً إلى هذا الصفاء الذي يشع من عينيك فيهدي
الناظر إلى الطمأنينة التي تنعم بها نفسك .. ولقد كدت أنكر
عيني أو أنكر عليك هذا الصفاء الوافد ، فما كنت - وأنت
خَدَنِي - اللحظة عليك من قبل !! قلت له وأنا في غمرة من السرور
بصلاح أمري وصدق فراسة الشيخ : فإني - متعني الله
بانعطافك - لشديد البهجة بما تقول . وأرجو أن يديم الله علي
نعمة هذا الصفاء الذي أهديته لي .. قال الشيخ : فإنه سيديها
عليك مادمت عاقد العزم على تخليص نفسك من مأساتها
والخروج بها من دجاها إلى نورها .. ستلاقي نصيباً في سبيل هذا

الخلاص ، ولكنك ستفوز وستنسيك حلاوة الفوز مرارة التعب ،
فسر في طريقك ولا تبال .. قلت للشيخ : فياني لأعدك منذ
اليوم منقذ روحي بعد أن قمت بتثقيف عقلي ، ولئن وجدت في
الثانية ثقة واعتزازاً فلقد وجدت في الأولى أمناً وطمأنينة ..
فابتسم الشيخ بتواضع وقال : لست بالمنقذ ولا المشقف وإنما هي
الأقدار شاءت أن نتلاقى وأن يحتك فكرانا .. فتنبعث منهما
هذه الشرارة التي أضاءت طريقينا .

ولقد طالت النفس الأمانة تنازعني حيناً إلى المتعة واللهو
فأنظر إليك وأنت تتفجر شباباً وحيوية ولكنك تنزع بفطتك إلى
الخير وتؤثر الحسنى وتثبت للغواية التي تملها عليك نوازع اللحم
والدم فتتهزم حيناً وتنتصر أحياناً .. وأنظر أنا إلى نفسي وقد
تعدت طور الشباب ولم يبق بينها وبين لقاء ربها إلا أمداً قريباً .
وهي رغم كهولتها واقترابها من القبر تنزع أحياناً إلى الغواية
وتكاد أن تفارقها لولا الخشية والضعف ! لقد كنت أنظر إلى
حالي فاعجب بك وآخذ منك العبرة فأنهاي النفس عن الهوى

حتى تشوب إلى رشدھا بعد تمرد وعصيان فأنا آخذ منك أكثر مما أعطيك فلا من ولا تشرب ، فإنما كلانا بشر خاضع للغواية إلا أن يشاء الله .. هذه واحدة أما الثانية فهي أنني ماكنت بالقادر على توجيهك إلى هذا النهج القويم الذي تسير فيه منذ يومك لولا هذا الاستعداد الطبيعي في نفسك للخير ، يجعلها كالترية الخصبة تجد البذرة فيها للحياة المتدفعة المتضاعفة . إن قابليتك للتلقي هي التي جعلت من نصحي شيئاً ذا قيمة وأثمار ، وإلا فإن الملهمين أنفسهم ليسوا بقادرين على إثبات الخير في أرضٍ بور ما تزخر إلا بالوحل ولا يترعرع فيها إلا شر النبات .

وشعرت بما يشعر به الغريق يئس من الحياة ثم انتشلته يد منقذة فعاد إلى حياته كأبهج ما تكون العودة وتشبث بها بعد أن طارت تفلت من يديه فهو ما يرى فيها إلا نضارة وبشراً بعد عبوس الموت وكلوحه ..

وأردت أن أستزيد من برّ الشيخ ، وأن أستلهم منه ومضات من التجلي والاشراق أراهما يلوحان الفينة بعد الفينة

هذا . فبعضهم يستعلي بها استعلاء شديداً .. وبعضهم ينحدر بها إلى قرار سحيقة .. ويشدد الحوار والهجوم والدفاع عن حقوقها وواجباتها .. حتى لقد اختلف الناس اختلافاً شديداً في أن الأولى والخير لها ولمجتمعها أن تلزم دارها لتقوم بواجباتها نحو زوجها وولدها ومنزلها وهو رأي قديم ذهب إليه فيلسوف المعرة أبو العلاء فطالب بتعليمهن الطبخ والكنس وترك القراءة والكتابة كما يقول في إحدى قصائده : « وخلوا قراءة وكتابة » وهو رأي كما يرى شيخنا مبالغ في الإجحاف بحقوق المرأة مسرف فيه .. أو أن تأخذ بقسط من التعليم يفيدها حتى في واجبها تجاه الزوج والولد والمنزل .. فإذا ظهرت منها بوادر نبوغ واجتهاد ورغبة في مزيد كان من حقها علينا أن نحقق لها هذه الرغبة ولا سيما في تلك النواحي التي تكاد تكون حاجة الناس فيها إلى المرأة أكثر من حاجتهم إلى الرجل كالتمريض والطب النسائي والتدريس لبنات جنسها وما إلى ذلك مما هو

للمرأة وأحوج منه للرجل .

وأسرف أناس إسرافاً قد يضر بقضية المرأة ذاتها فقالوا
بضرورة مساواة المرأة للرجل مساواة كاملة في الحقوق
والواجبات مما دفع بكثير من النساء إلى حرية ضارة ممقوتة
منحرفة عن الفضيلة كل انحراف .. وأزف وقت انصراف
الشيخ فتأجل البحث في السؤال وفي الإجابة عليه إلى
يوم قادم .

المجلس الرابع عشر :

واجتمع الشيخ إلى مريديه في الليلة التالية .. واصل حديثه الشائق عن وضع المرأة في كافة أنحاء العالم وفي جميع العصور .

قال : لقد أخبرني من أثق بخبره أنه شاهد بعيني رأسه عدداً كبيراً من النساء وهن يزاولن أحط الأعمال وأشقها ويتصببن عرقاً ويبدو عليهن الكلال والإعياء .. شاهد هذا في الشرق وفي الغرب على السواء ، شاهدين زبالات وكناسات ومنظفات مراحيض ومجاري في داخل الأرض .. وكان منظرهن يغشي النفس ويحملها على الإشفاق على زهرات غضة في ربيع العمر ومنتصفه وهن يكابدن في سبيل لقمة العيش ويلاقين في سبيل ذلك نصباً كبيراً وقد ذبلت وجوههن وفارقتها الأنوثة والخفر .. وكان الرجال يملكون بهن ولا يجدون حرجاً وولا غضاضة من منظرهن المؤذي هذا .. فهل هذه هي الحرية التي ينشدها النساء ؟ أم هي حرية التبذل والتبرج والتعرض لأنظار الرجال

بظاهر لا تمت إلى الحياة بصلة .. وتدعو جهرة إلى الفسوق
والدعارة !؟

الحق أن الإسلام قد أعطى المرأة حريتها في حدود معقولة
وعادلة . وصان لها كرامتها وأنوثتها وطهرها ، وساعدها على
العيش براحة بال واطمئنان . فهي سيدة المنزل وزية البيت وأم
الأطفال .. وهي المدرسة الأولى لهم في الحياة .. ومن حقها أن
تأخذ نصيباً من التعليم فذلك أدعى إلى أن يكون أمّاً صالحة
وربة منزل ممتازة ، يعيش في ظلها الزوج والولد في اغتباط
وراحة .. ولقد أسلفت القول .. أن للمرأة أن تتزید في التعليم
متى ظهرت لها مواهب تدعو إلى هذا التزید لتكون الفائدة منها
لمنزلها وزوجها وولدها .. وللمجتمع أيضاً .. على أن المرأة
بطبيعتها الأنثوية التي فطرها الله عليها لن تستغني بحال من
الأحوال ولو أنها أوتيت كل كنوز الأرض أو كل أمجادها
وشهرتها .. لن تستغني بحال عن الزوج والولد ففيهما تكمن
سعادتها النفسية الحقة .. وكثير من النساء اللواتي فاتهن قطار

الزوجية ، بعد أن أثرن العلم عليها .. كثير منهن قد ندمن على هذا أشد ندم .. وعرفن أن كل ما أوتوه من علم وبعد صيت لم يغنياهن شيئاً .. ولم يعطياهن العوض عن الحياة الزوجية الممتعة .. وتشاءب الشيخ ثم قال لمريديه .. أرى أن للحديث بقية سنكملها إن شاء الله من غدنا المقبل .. وانفرط عقد الجماعة إلى لقاء جديد من يومهم التالي لمن قدر له أن يعيش .

المجلس الخامس عشر :

وفي الليلة الثانية اجتمع الشيخ بمريديه كعادتهم في ليالي شهر رمضان ، وتحدث وهو ينظر إليهم بحنان وقال : سنحاول الليلة أن نلم إمامة عجلى بموقف الإسلام من المرأة .

فلقد كانت المرأة في الجاهلية مضطهدة أشد اضطهاد ، وكان بعض العرب يثدون بناتهم كراهية فيهم ، يقول الله جل جلاله في محكم كتابه « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به .. فلما جاء الإسلام رفع من قدرها وساواها بالرجل في كثير من حالاتها .. ولما كان باريء الخلق يعرف خلقه أكثر مما نعرف بما لا يقاس ويعرف أن الرجل بحكم تركيبه الجشمانى والفكري أقوى من المرأة فقد جعله قواما عليها « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض » ولكنه أوصى خيراً ، كما أوصى رسوله الكريم بهن في أحاديث لا حصر لها ، فقال « رفقا

بالقوارير » ، ولم تأت امرأة متظلمة من رجلها إلا أعطائها حقها
الأوفى منه ونصح به بحسن معاملة امرأته .. ولقد نبغ في صدر
الإسلام نساء كثيرات كخديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت أبي
بكر الصديق ، وفاطمة الزهراء .. وسكينة بنت الحسين بن علي ،
وعائشة بنت طلحة وصفية بنت عبد المطلب .. وقاتل بعضهن
قتالاً مشرفاً بين يدي رسول الله ففقدن بذلك الكثير من الرجال
المتقاعدين عن الجهاد .. وما حديث نسيبة المازني بمجهول ولا
منكور فلقد قاتلت مع رسول الله يوم أحد قتالاً أوجب لها ثناء
الرسول وحسن دعائه ، كما قاتلت المرتدين تحت راية خالد بن
الوليد سيف الله حتى جرحت جراحات كثيرة وقطعت ذراعها
وهي تجاهد .. كذلك هي الخنساء فلقد بكت أخاها صخراً بما لم
يبك مثله تاكل من الرجال أو النساء .. فلما استشهد أولادها
في الإسلام لم تذرف دمة واحدة وإنما احتسبتهم في سبيل الله
شهداء أبراراً . وحمدت الله وأثنت عليه مصطبرة راضية ..
وتاريخ الإسلام حافل بنوابغ النساء فلقد كان منهن الكثيرات

في العهدين الأموي والعباسي وفيما تلاهما من عهود ولو لم
يكرم الإسلام النساء لما نبغن وجئن بما يشبه المعجزات من جلائل
الأعمال .

فهل بعد هذا يأتينا مستشرق حقود أو مضلل أو مسخر
أو جاهل ليدس للإسلام ويرميه بأشنع التهم وهو منها براء ؟
اللهم إنا نسألك الهداية والتوفيق فيما يقولون عن الإسلام إلا
زوراً وبهتاناً فهو نصير المرأة وحاميها من التبذل الذي يلاشي
أنوثتها ويعطل رسالتها في الحياة ..

وتهياً الشيخ للقيام بعد أن أزف وقته ، فقام مودعاً من
جميع مرديه بكل تجلة وحب وتقدير .

المجلس السادس عشر :

واستوى الشيخ في مجلسه كعادته في وقته المحدد فلقد كان حريصاً كل الحرص على الدقة في المواعيد فإذا صرفه ظرف قاهر عن حضور مجلسه بادر إلى إخبار مريديه بتخلفه مع تبيان أسباب التخلف .. ولقد قال لهم ذات مرة : إن صدق الوعد من أكرم الخلال للناس فإذا وعدت أنا بذلت كل جهدي لوفائي بالوعد ، كذلك أنا إذا وعدت فإنني أرتقب ممن وعدني أن يفي بوعده في وقته المحدد لئلا يضيع أوقاتي سدى بطول الانتظار.. واستشهد الشيخ مرة بقوله عز وجل « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا » فلفت أنظار مريديه إلى الدقة والبراعة المعجزتين في الآية الكريمة .. وقال لهم إنه سبحانه قدم صدق الوعد على الرسالة والنبوة لما له من قدر عظيم عنده سبحانه ، كما أستشهد بكثير من أشعار العرب وكلامهم عن صدق الوعد مما يدل على أن هذه الخلة كانت ذات مكانة مرموقة عند العرب منذ جاهليتهم فلما أشرق نور الإسلام

فيها وجاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معززة لإجلالهم
هذه المزية ازدادوا تمسكاً بها وحرصاً عليها . هكذا كان أسلافنا
الكرام ، فما الذي صار حتى أصبحنا لا نحفل بهذه المزية التي
كدنا أن نتفرد بها منذ القدم جاهلية وإسلاماً ؟! لقد أصبحنا لا
نعبأ بها إلا قليلاً ، وأصبحنا نزجي الوعود جزافاً ولا نتقيد
بها .. فكيف نلوم من يخلف وعده أو يرجئه كثيراً بحيث يؤدي
صاحبه ويبدد أوقاته الثمينة .. ونحن لا نلتزم بهذه المواعيد
صدقاً ولا دقة ؟!

وأعجب ما في الأمر أن بعضنا أصبح يشيد بدقة الفرنجة
في وعودهم ويضرب بها الأمثال فيقول مثلاً .. هذا وعد
إنكليزي ؟! هذا والله هو العجب العجيب .. إن الفرنجة قد
أخذوا عنا هذه الصفة المختارة ، فكيف ننسبها لهم ؟! إن من
يحترم وعده يحترم بذلك دينه وتقاليده ورجولته بل أقول
إنسانيته لأن الوفاء بالوعد مما يشترك فيه الرجال والنساء على
السواء ، ذلك لأن الإسلام لم يفرق قط بين الرجل والمرأة في

الخلال الطيبة .. بل إن التفريق بينهما في بعض نواحي الحياة جاء لمصلحة المرأة أكثر منه لمصلحة الرجل ، فمن أتى بهذا التفريق هو الخالق البارى .. العليم الحكيم .. الذي يجب علينا وجوباً قاطعاً الإذعان لأوامره وأحكامه واعتبارهما أوامر وأحكاماً لمصالحنا رجالاً ونساء .. فلئن اشتكى بعض النساء أو بعض من يزعمون أنهم أنصار المرأة وحمايتها من الاضطهاد .. لئن زعمن أو زعموا ذلك فإنهم يفترون على الله وعلى أنفسهم الكذب وهم يعلمون .

ولقد دعى تدهور مركز المرأة في الغرب والشرق .. ربما كثيراً من الفلاسفة والمفكرين هناك إلى ضرورة إنقاذها من الوهدة التي تردت إليها .. ولن ينقذها منها إلا اتباع تعاليم الأسلام وأحكامه لها .

المجلس السابع عشر :

أخذ الشيخ مجلسه متثاقلاً تبدو على وجهه الصبيح الوقور مسحة من ألم وحزن تنبه لها مريدوه فأجفلوا وعرفوا أن شيخهم يعاني من أمر عظيم يقلقه ويقض مضجعه . فلقد كانت عادته معهم أن يكون طلق المحيا ، باسم الشجر متهللاً بشراً وتفاؤلاً بالحياة . وتهيبوا أن يسألوه عن سبب ألمه وحزنه .. لكن تلميذه الأثير لديه بثابرته واجتهاده وألمعيته تجاسر فسأل الشيخ عما يعاني .. قال له : إننا لنرى من يومنا هذا على وجه شيخنا جهامة وقطوبا لم نعهدهما به من ذي قبل .. فما بال شيخنا حفظه الله ووقاه شرور الحياة ومآسيها ..

قال الشيخ - وهو يحاول أن يجلو عن محياه هذا الشجن الطارئ ما استطاع إلى ذلك من سبيل - : فإنني يا بني لكما تقول فلقد استطعت أن أكبح من ألمي وحزني حيناً من الدهر حتى غلباني على أمري منذ ليلتي البارحة ..

إن الأتون الملهب الذي يعيش فيه البلد العربي ذو

الأكثرية الإسلامية لبنان الحبيب قد طال أمد اشتعاله .. وكلما اقتربت بشائر السلام فيه .. سبقتها نذر الحرب الكريهة التي حصدت عشرات الألوف من اللبنانيين ، وأوشكت أن تنقض بنيان اقتصاده من أساسه .. لقد كان لبنان هو المنتج العربي الفريد الذي يهرع إليه معظم أبناء العروبة في فصل الصيف القائظ . فيجدون به المناخ الحلو .. والخضرة السندسية ذات الزهر والثمر .. والجداول والغدران .. والجبل والبحر .. كلاهما رائع الجمال .. كثير الانعاش .. ومنذ أن شبت به الحرب التي أعيت المفكرين معرفة أسبابها الجوهرية .. فاختلّفوا فيها أختلافاً كبيراً ..

سأترك - يا بني - كل الأسباب التي برر بها الناس هاته الحرب الضروس ، وسأتجاوزها بعد أن أعيتني الحيلة في ترجيح أيها .. وكل ما أستطيع أن أقوله الساعة عنها أن أسبابها خارجية أكثر منها داخلية .. وأن هناك من يهمله أن يوجج هذه النار كلما خبا أوارها . فنحن نسمع في كل حين من معظم قادة

لبنان مسلمين ومسيحيين .. إن لم نقل منهم جميعاً .. نسمع منهم أن هذه الحرب التي أتت على الأخضر واليابس كما يقولون ليست معقولة ولا طبيعية .. ويقولون إنهم جميعاً يرفضون تقسيم لبنان لأن التقسيم في غير مصلحته .. والعالم اليوم يتجه إلى الوحدة والاتحاد والتكتل لا إلى الانفصام والتقسيم .. والعرب في كل مكان وأكثرتهم الساحقة مسلمة .. العرب كلهم يتجهون إلى لبنان ويؤازرونه ويدعمون قضاياه في الداخل والخارج . وهذا فإن كبار عقلاء المسيحيين بما فيهم الساسة ينكرون فكرة التقسيم أشد إنكاراً ولا يتقبلونها بحال لأنها في غير مصلحة المسيحيين اللبنانيين وبوجه خاص الموارنة ..

ونظر الشيخ إلى ساعته فعرف أن الوقت المحدد للجلسة قد انتهى فقام من مجلسه مودعاً بالحفاوة والإكبار من كل مريديه ليتم حديثه عن لبنان الشقيق في جلسته التالية من يوم غد إن شاء الله .

المجلس الثامن عشر :

واجتمع الشيخ بمريديه في الليلة التالية وما يزال بوجهه أثر من حديث الليلة البارحة .. والحديث كما يقولون شجون .. وكان المريدون يتطلعون إليه يبتغون منه استئناف حديثه عن لبنان فلقد أحدث في نفوسهم ذلك الحديث انطباعاً صادقاً عن لبنان وما يجري فيه من أحداث دامية لها أول وليس يعلم نهايتها إلا الله .

قال الشيخ فإن حديثي إليكم عن لبنان قد نبش في صدري جراحاً عميقة كنت أعطيها بطبقة صفيقة من التجلد والاصطبار .. فأما وقد اضطرت أن أتحدث عنها فإن الجراح قد نكأت وتفجرت في صدري دماً عبيطاً . غير أنني أرى في هذا الحديث على مرارته شيئاً من المشاركة الوجدانية .. وكما يقول الشاعر العربي القديم :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع !

فالمكاشفة مع ذوي الميول المتقاربة تريح النفس والأعصاب ..
مثلها كمثل الدمع سواء بسواء .. وإذا كان الأطباء قد اكتشفوا
حديثاً أن الدموع يخفف من المصاب فظنه الناس كشفًا علميًا
جديدًا لحضارة الغرب فإن الواقع هو غير هذا فإن العرب قد
عرفوا منذ زمن طويل فائدة جريان الدموع وخطر انحباسها فقال
شاعرهم :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة

من الوجد أو يشفي شجى البلابل !
والرجل الكريم يرى أن من الرجولة ومن الكرامة أن لا يرى الناس
دموعه وهي تنساب فهذا الانسياب البادي للعيوب .. إنما هو
للمرأة لا للرجل . وهي ترى - عدا عن هذا - إن الدموع من
أسلحتها الماضية .. فهي تشهرها في وجه الرجل فما يطبق إلا
الاستجابة لما تريد .. ولقد بكيت يا أبنائي .. وقد لفني الليل
بردائه .. ودوني دون الناس باب قد أحكمت رتاجه فلن يستطيع
أحد أن يتسلل إليه فيكتشف ما أنا فيه من هم وتباريح .. فإذا

استطاع المرء أن يخفف من لواعجه بالبكاء المستور .. وإذا هو استطاع إلى جانب هذا .. أن يتحدث إلى نفر من ذوي النفوس الحساسة والطباع المرفهة بما يعانیه فإنه سيجد لذلك برداً وطمأنينة ولا ريب .. إلا ترونني الليلة وأنا أحسن حالاً من ليلة الأمس ؟!

وبعد فإن أحداث لبنان التي طال عليها الأمد مما يثير الألم كما يثير التساؤل ممن يحبون هذا البلد الطيب .. فليس من الطبيعى أن تطول المعركة كل هذا الزمن لولا وجود دوافع لها تؤثر من نيرانها كلما كادت أن تخبر .. وتترمد .. ومعظم هذه الدوافع هي من خارج لبنان لا من داخلها .. من أولئك الذين يستفيدون من تمزق لبنان وتقسيمه إلى دويلات جدّ صغيرة .. فمن هم هؤلاء ؟! هذا ما سنعرض له إن شاء الله في حديثنا المقبل ..

المجلس التاسع عشر :

وهي الليلة الثانية تحدث الشيخ إلى مرديده فقال : إن أكبر مستفيد من تمزق لبنان بعد الحروب الأهلية التي أنهكته وأطاحت باقتصاده هي إسرائيل هذا الجسم الغريب الدخيل على دنيا العروبة والإسلام .. ثم الدول الاستعمارية والشيوعية التي تساعد إسرائيل بكل قواها ، فما إسرائيل إلا الحربة التي غرسوها في جسم العروبة عن عمد وسابق تدبير لتكون يدهم التي يبطشون بها ، وتفتح أمام منتجاتهم الأسواق العربية الكبرى والضعيفة في ذات الوقت . فهي رغم اتساعها وعظيم استهلاكها ، إلا أنها لا تستطيع وهي ضعيفة مستباحة .. أن تنظم اقتصادها وأن تحميه من ترفع السلع الغربية والشرقية إليها بالإضافة إلى سلع إسرائيل الدخيلة .. إنهم جميعاً يعرفون أن العرب .. وقد كادوا أن يصبحوا القوة العالمية الثالثة على ظهر هذا الكوكب الأرضي لولا تطاحنهم وتمزقهم كل ممزق .. قد كاد عددهم أن يصل إلى مائة وخمسين مليوناً .. وقد تفشى

فيهم التعليم مما يبشر بظهور جيل جديد مثقف متنور يمكن للعروبة في الأرض بإمكاناته ومواقعه الاستراتيجية وباتساع أراضيه وخصوبتها وكثرة مياهها ، وبما تحتويه من خبرات وفيرة مذهلة لا يستغني عنها العالم في حاضره .. وتشتد إليها حاجته في مستقبله .

فهم لهذا لا يريدون للعرب أن يكونوا أقوياء لئلا يذودوا عن حماهم بقوة .. وليستطيعوا أن يقفوا مع القوى العالمية الكبرى موقف الندادة لا موقف التابع .. وليتعاملوا معها بالنسبة لخيراتهم معاملة لا ضعف فيها ولا استخذاء ولا سذاجة وغشامة .. فإنهم إن فعلوا هذا منعوا تلك القوى الضارية من الجشع والاستغلال والتحكم وإملاء الشروط .. لكنني أعتقد - يا بني - أن هذه القوى قد ضلت الطريق السوي وأخطأت في الحكم وجانبها الصواب .. إن العرب لن يستمروا في هذا التفرق والنزاع والتطاحن ، فلا بد من يوم قريب آت لا محالة ، يجمع من شملهم المتبعثر ويجعلهم كالحزمة الواحدة القوية المتماسكة

كما قال الشاعر العربي القديم :

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى

خطب ولا تتفرقوا أحاداً

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا

وإذا افترقن تكسرت أفراداً

إن الدين والدم واللغة والجوار والمصالح المشتركة .. كل هذا يدعوهم إلى التضامن والوفاق لئلا يبتلعهم أعداؤهم واحداً واحداً حين لا يستطيعون ابتلاعهم مجتمعين متحدين .. كتلة واحدة .. ولقد بدأ عقلاؤهم ومفكروهم المخلصون منذ حين من الدهر في تنبيههم إلى الأخطار المحدقة بهم من كل جانب ، وبذلوا مجهوداً جباراً في هذا السبيل الذي خططوا له بإحكام ونذروا أنفسهم لتحقيقه . ولن ينسى العرب والمسلمون في كل بقعة من هذا الكوكب تظلها الشمس .. لن ينسوا الفيصل العظيم الحكيم .. لن ينسوا بذله ومتاعبه وتضحياته في هذا السبيل القويم حتى مضى شهيداً إلى رحاب ربه الكريم .. وكل

ما نراه اليوم من دعوة لتضامن العرب ولا تباع تعاليم الإسلام
ورفع رايته هو ثمار لتلك البذور الطيبة التي بذرها الفيصل
فبدأت تؤتي ثمارها بإذن ربها .. وقام بعده من خلفه بتأييد
الدعوة والجهاد والبذل في سبيلها بكل قوة وعزم وإخلاص .

المجلس العشرون :

واكتمل عقد المريدين وفي صدر مجلسهم شيخهم الوقور
وكان يهتمهم بتسبيح ألهاه قليلاً عن موعد الدرس الشائق ..
والتفت إلى مريديه فإذا أبصارهم شاخصة إليه منتظرة .. قال
الشيخ : أذكر أنني أتيت في آخر حديث الليلة البارحة على
موقف الفیصل - يرحمه الله - من التضامن العربي والإسلامي ،
وبذله في سبيلهما الكثير الطيب من صحته ووقته وفكره ،
وماله حتى أصبح مثلاً يحتذى .. وأصبح حديث المجالس العربية
والإسلامية كلها على كل صعيد ولدى مختلف الطبقات حتى
دعاه الله إلى رحابه شهيداً مرضياً إن شاء الله .. وما يزال ذكره
العطر يتردد على كل لسان فلقد أصبح بما فعله للعروبة والإسلام
من الخالدين .. فليتغمده الله برحمة منه ورضوان .. وخلفه الملك
الصالح خالد يؤازره ولي عهده فهد فسارا على نفس النهج ، ما
يخرجون عنه شعرة واحدة .. وأصبحا متممين ما بدأ به الفیصل
، ولئن كانت هذه المملكة العربية الإسلامية الفتية قد اقتعدت

مكاناً علياً بين كافة دول الأرض بفضل هذه السياسة الرشيدة ..
وأُمسّت مثابة لكل الدول العربية والإسلامية .. بل لكل دول
الأرض . ففي كل يوم رئيس دولة ، أو رئيس حكومة أو زعيم
كبير .. أو وزير مسؤول يزورنا منهم زائر مسترشد أو طالب عون
مادي وغير مادي يستعين به على التنمية وعلى الخروج من
المآزق المالية .. وعلى غيرهما من كل ما ينفع ويرفع والدولة لا
تألوا جهداً في الاستجابة لكل المطالب ما دامت ترى فيها عوناً
وفائدة للإسلام والعروبة والبشرية كلها . فهي تنفق قسطاً كبيراً
من دخلها العام الكبير في هذا السبيل ولا تمتن ولا تشتط إلا
الرشاد والخير .. ونحن نبتهل إلى الله العلي القدير أن يضاعف
من توفيقها وأن يسد خطاها فلا تنحرف عن هذا الطريق
القوم .. كما إننا نبتهل إلى سبحانه أن يجعل منها قدوة طيبة
للبشرية جمعاء ولا سيما إخواننا في العروبة والإسلام فإنهم لو
ساروا مثلها هذا السير الذي لا يبتغي بما يفعله إلا وجه الله ..
ثم خير الناس لكان للعروبة والإسلام شأن أي شأن في دنيانا

الحاضرة ولكنها سحابة صيف ما تلبث أن تنقشع إن شاء الله عن
سمائنا ويومئذ سيعرف العالم كله من هم العرب .. ومن هم
المسلمون ، ويومئذ تزول الحزازات والأحقاد والفرقة عن دنيا
العرب .. كما تزول البدع والخرافات والعقائد المستوردة من دنيا
الإسلام ويعود صافياً نقياً .. قوياً عزيزاً كما بدأ .. ثم صمت
الشيخ فجأة وكأنه تذكر شيئاً .. وأطرق برأسه إلى الأرض
إطراقة طالت حتى خاف مريدوه عليه وتساءلوا بهمس وصل إلى
أذن الشيخ فرفع رأسه إليهم وقد زال ما به من سهوهم ووجوم ..
وقال لهم : كدت ألوم نفسي على أنني أطلت الحديث عن لبنان
ومأساته الدامية .. وانصرفت به عن الإجابة على أسئلتكم
كالمعتاد ، إلا أنني عدت فقلت إنني لم أقل إلا خيراً .. ولم
أتحدث إلا عن مأساة عربية مسلمة شغلت أفكارنا جميعاً حيناً
من الدهر .. ولم يبق للحديث إلا بقية قصيرة موعداً معنا غدنا
إن شاء الله .

المجلس الحادي والعشرون :

وفي الليلة حينما اكتمل الجميع بادر الشيخ أحد مريديه.. وكان من أصل لبناني فقال لشيخه : لقد تفضلت فوعدتنا ليلة البارحة بكلمة قصيرة عن لبنان الشقيق ونحن جميعاً نتطلع إلى هاته الكلمة باهتمام واشتياق ، ونعرف أن حديثك عن لبنان في ليالينا الأخيرة قد أمتعنا كما أفادنا. ولقد استعضنا به خير عوض عن أسئلتنا وإجاباتك فما تقول لنا إلا ما يمتع ويفيد .. وتبسم الشيخ في وجه مریده وقال له : لست وحدك اللبناني فما دام لبنان قطعة من العروبة .. بل ويكاد يكون أوفرها جمالاً في مناخه ومياهه ورياضه وزهوره وثماره وجداوله وينابيعه وجبله وبحره .. إنه المنتجع الفريد الذي ينتجع إليه أبناء العروبة في فصل الصيف فيجدون به ما تقر به أعينهم وتفرح به قلوبهم وتصح به أجسامهم وتصفو به أفكارهم وترق أحاسيسهم . وقد كان لنا جميعاً خيراً من مصائف الشرق أو الغرب .. ولوددت أن ينصرف العرب ، كل العرب عنهما إليه فيغمرون بذلك اقتصاده

ويمكن أهليه من تطوير وتجميل تلك المصائف الحلوة .. بدلاً من
صرف الأموال الطائلة في أوروبا وفي أميركا ، وفي بعض بلاد
الشرق الأقصى وأفريقيا صيف كل عام .. ولكن هذه الحرب
الضروس التي استمرت أعواماً طويلاً فأهدرت ألوف الأرواح
ودمرت مئات المزارع قد ملأت قلوب أهله ذعراً وخوفاً واضطرتهم
إلى الهجرة منه حفاظاً على أرواحهم والبقية الباقية من أموالهم
.. فكيف بقلوب المصطفين من غير أهله ؟! وإننا لنعتقد الآمال
على هذه المساعي الحميدة التي يبذلها بعض زعماء العرب
الكبار وفي مقدمتهم زعماء هذا البلد الأقدس معقل العروبة
والإسلام .. حتى إذا انكشفت هذه الغمة وانزاح هذا الكابوس
عن صدر لبنان .. عاد إليه عاشقوه من العرب المصطفين وغير
المصطفين .. وعسى أن يكون هذا قريباً بإذن الله .. أقول ما
دام لبنان قطعة من العروبة فنحن جميعاً لبنانيون مثلك سواء
بسواء .. ليس هناك يا بني فرق بين بلد عربي وبلد آخر مثله ..
كلهم عرب .. وعلى أكتاف العرب بعد رسالة محمد التي شرف

الله العرب بها وميزهم على سواهم من الأمم حتى لقد قال
المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « أنا خيار من خيار »
وما بعد هذا من شرف للعرب الأخيار .. أقول على أكتاف
العرب الصناديد قامت الرسالة المحمدية وانتشرت في كل بقاع
الأرض ورفرفت رايتها فوق كل مكان منه حينما كان الغرب سيد
حضارة اليوم يعمه في الظلام .. ثم يعود بفضل الحضارة
الإسلامية إلى النور قليلاً قليلاً بعد أن اقتبس من الإسلام خير
ما فيه وكله خير .. فالعرب هم حماة الإسلام في البدء والمنتهى
. منهم الرسول الأعظم .. وفي بلدهم بيت الله العريق وكعبته
المشرفة .. وفيها دار الهجرة التي خرجت منها جحافل الإسلام
فأطاحت بأعظم إمبراطوريتين في تلك العصور وأنقذت شعوبهما
من الظلم والاستبداد فدخل الناس في دين الله أفواجا .. ومن لم
يدخل منهم في حظيرة الإسلام عاش معزراً غير مضطهد ..
واكتفى الإسلام منه بقليل من المال كجزية لا تكاد تكفي بعض
ما ينعم به من أمن ورخاء في ظلال الإسلام .. ألم يقل غوستاف

لوبيول : ما عرف العالم فاتحاً أرحم من العرب وكان فيما قال
صادقاً كل الصدق .. منصفاً كل الإنصاف ؟!

وبعد فسامحك الله يا بني لقد استدرجتني في الحديث عن
لبنان الحبيب استدراجاً صرفني عن الكلمة القصيرة التي أود أن
أختتمها حديثي عن مأساة لبنان العربي .. ولقد أعجلني الوقت
عن الوفاء .. فإلى الغد أن شاء الله .

المجلس الثاني والعشرون :

وحينما جلس الشيخ إلى مجلسه في ليلته التالية .. سارع إلى الحديث خشية أن يمضي الوقت دون أن يأتي على كلمته القصيرة التي يود أن يختتم بها حديثه عن مأساة لبنان .. قال : إن العجيب في أمر الحرب الأهلية بلبنان والتي استمرت أعواماً طويلاً أنه لا تبدو في أفقها بوادر انطفائها .. ولقد ذهب الناس في تعليل هذه الظاهرة العجيبة في هذه الحرب العوان مذاهب شتى .. فقال بعضهم : إن السبب هو الطائفية المستحكمة في لبنان بين المسلمين والمسيحيين وبصورة خاصة الموارنة منهم .. وما أرى أن هذا السبب هو الذي يؤجج نيران هذه الحرب كلما قاربت أن تخمد .. فلماذا تستفحل هذه الطائفية في هذه الأيام وحدها وقد عاش المسلمون والمسيحيون أمداً طويلاً في وئام إن لم يكن كاملاً فإنه على كل حال لم يصل بالطائفتين إلى حافة الهاوية ! وما الذي تريده هذه الطائفية بموطنها الغالي ؟! أتريد التقسيم وهو بلد صغير لا يحتمل

التقسيم الذي يضره أكثر مما ينفعه إن كان له نفع؟! أريدون أن يكون للمسلمين وطن في لبنان بعد التقسيم.. وللمارونيين وطن؟! والمارونيون.. وزعماءهم على الأخص يعرفون مدى المساعدات الكبرى التي تتدفق على لبنان من شقيقاته العربيات.. ويعرفون أنهم إذا انفصلوا عن المسلمين بكيان خاص بهم فإن هذا الكيان سيحرم من هذه المساعدات المتنوعة على كل صعيد؟! وسيكون كياناً هزياً لا يقوى على الثبات في وجه المطامع والخصوم. كما يعرفون أن العالم بكل شعوبه وأممه يتجه إلى الاتحاد لا إلى الانفصال لأن الاتحاد قوة، والانفصال ضعف. نحن لا نظن أن الطائفية هي السبب وإن كانت من أسباب ضعف لبنان واهتزازاته الدائمة.. ذلك لأن كثيراً من زعماء المارونية لهم صلات وثيقة بالزعماء المسلمين.. وهم على وفاق معهم على أن مصلحة لبنان في الوحدة ما بين الطائفتين لا في الانفصال.. وكثيراً ما سمعنا العميد الماروني ريمون إده يجاهر بهذا في كل مكان وبكل مناسبة.. كما أن موقف الزعيم الماروني الرئيس سليمان فرنجية واضح لا غموض فيه.. فلئن شايع

هذا الزعيم .. الكتائبين والشمعونيين فترة طويلة لأسباب يضيق المجال عن سردها ، فإنه طالما أعلن بصراحة أنه ضد التقسيم .. وموقفه اليوم من الوضع والجلاء ولا سيما بعد مذبحه اهدن التي راح ضحيتها ابنه الأكبر وزوجته وحفيده وسائق السيارة والمربية مع عدد كبير من أنصاره على أيدي الكتائبين قد أوضح له بما لا يقبل الشك أن الكتائب وحلفاءها هم طغمة من السفاحين لا يتورعون عن ارتكاب أبشع الجرائم في سبيل مآربهم الشخصية ومطامعهم الآثمة .. وحتى الجميل وشمعون فإنهم لا يستطيعون أن يجاهروا بالرغبة في التقسيم لأنهم يعرفون أنه رأي لا يناصرهم أحد عليه حتى من الطائفة المارونية ، ولكنهم يبطنون غير ما يتظاهرون به والله غالب على أمره ولن يهمل هذه العصابة بعدما ارتكبت كل هذه الموبقات وجرت لبنان إلى حافة الهاوية السحيقة التي لا قرار لها .. وتنهد الشيخ من أعماق وجدانه .. ثم قال لمريديه .. إنها الصهيونية .. وإنها إسرائيل .. هما المحركان لكل هذه الفتن

التي ملأت جسم لبنان بالجراح ..إنهما هما المستفيدان الأكبران
من فرية التقسيم فإنه يتيح لإسرائيل أن تبسط نفوذها على هذه
الدويلات الصغيرة .. بطريق عملاتها من كتائبين وشمعونيين
.. ثم تشب من أرض لبنان إلى أراض عربية أخرى .. ولكن
العرب لن يتيحوا لها هذه الفرصة التي تلحق بهم ويقضيتهم
الكبرى كلها أبلغ الضرر .. وسيكون الله معهم لأن الحق معهم
ولأن عدالة قضيتهم ظاهرة الوضوح ، وما عليهم إلا أن يتحدوا
ويتضامنوا في وجه هذا الخطر الجسيم حتى يظفروا بالنصر ..
وفي النصر عزتهم وكرامتهم ومجدهم وأمنهم وسعادتهم ورخاؤهم
وسلامهم .

المجلس الثالث والعشرون :

بدا الشيخ لمريديه في الليلة التالية .. وبعد أن قفل حديثه عن مأساة لبنان .. بدا لهم كناقاة أبل من مرض طويل . ففي وجهه نحول وشحوب ، وفي عينيه حزن كظيم ، وفي ألفاظه ارتعاشات مرارة نفسية قاسية .. وفي مشيته ثاقل وضعف .. فأشفقوا عليه إشفاقاً شديداً فهو يحتل من نفوسهم محلاً رفيعاً لا يطاول .. بيد أنهم لم يفتحوه بكلمة واحدة عما أبصروه منه .. فلقد عرفوا السبب ، أن في حديثه المتواصل عن مأساة لبنان كما أسماها قد نبش في صدره جراحاً داميات .. فالشيخ من العقيدة الدينية في القمة ، ومن قوميته العربية في الذروة ، ولبنان بلد عربي وبلد إسلامي بالعدد الكبير الذي ينتمي إليه من المسلمين .

فالكوارث التي حاقت به سنين عددا ، قد أهاجت بلبله وأقضت من مضجعه فلن يقر له قرار حتى يعود السلام إلى ربوع لبنان النضرة .. ويعيش المسلمون والمسيحيون فيه على صفاء

وحب وتفاهم كما كانوا عليه من ذي قبل .. وأن يعرفوا عدوهم
اللدود الذي يتربص بهم الدوائر ولا يستريح له بال حتى يراهم
في أسوأ حال لكي يستغل هو هذا الضعف والتمزق لصالحه
وحده .

على الإخوة اللبنانيين أن يعرفوا ما يحاك لهم وراء
الستار ويدبر لهم خلف الكواليس .. لكي يتجنبوه .. يتفادوه
وينقلبوا ببكرة أبيهم عليه ليردوا كيده في نحره . وليقولوا له
بصراحة لقد عرفناك أيها الغراب المشؤوم فاذهب عن هذه المربع
وإلا ناصبناك الحرب حتى ينصرنا الله عليك . فعلى الباغي
تدور الدوائر .. فهل يقدر للشيخ فيما بقي له من عمر وهو يراه
أقل من القليل .. هل يقدر له أن يرى هذا اليوم الذي يتمناه
ليرقد في مضجعه الأخير وهو هانيء البال مستريح الضمير ..
أما المريدون فإنهم يضرعون إلى الله في السر والعلن أن يوافي
شيخهم هذا اليوم المرتقب .. كما يضرعون إليه سبحانه أن يمد
في عمر الشيخ طويلاً فإنهم لا يتصورون العيش بدونه فهو

واحتمهم الظليلة في قفر الحياة .. وهو المنهل العذب الذي منه
ينهلون كلما أظلماتهم الحياة وما أكثر ما تظمي ..

وابتسم المريد ذو الأصل اللبناني في وجه شيخه وقال له :
فإني أيها الشيخ لأشعر شعوراً خفياً بأن مأساة لبنان ستنتهي
إلى أمن شامل ورخاء وبلهنية عيش .. وستنتهي إلى وفاق بين
كافة العناصر اللبنانية بعد أن صهرتهم هذه المحنة الفاشية في
بوتقتها وصاغت منهم جميعاً جسماً واحداً قوياً مترابطاً .. ولقد
تكون المحن - يا شيخني - كما علمتنا ذوات فوائد جمّة على من
نزلت بهم .. وإني لأتحسس آثار هذا الوفاق منذ اليوم بل
وأتنسمه وأفعم صدري بعبيره .. ولقد سمعت من كثيرين من
إخواني اللبنانيين الذين جاءوا من لبنان فأسعدتني الفرصة
بلقائهم .. سمعت منهم ما يدل على صحة هذه التباشير ، وما
يثبت أن اللبنانيين بكافة طوائفهم قد سئموا هذا النزاع الطويل
الذي كاد يفضي ببلدهم الجميل إلى التبار .. وحنوا على اختلاف
نزعاتهم ومشاربهم إلى عودة السلام والتضامن والإخاء .. وأن

بعض زعمائهم المتعصبين سينزلون طوعاً أو كرهاً إلى ما يشتهيهِ
سواد الأمة . وما أراهم اليوم إلا كما قال شاعرنا العربي
القديم :

إذا اشتبكت يوماً فسالت دماؤها

تذكرت القربى ففاضت دموعها

فليطمئن بال شيخي وليفرح روعه فما ذلك اليوم ببعيد إن
شاء الله .

وتهللت أسارير الشيخ بما سمع من بشرى ، غير أن أحد
المريدين الخبثاء قال لزميله هذا .. فأنا قد سررنا كشيخنا الجليل
بهذا النبأ العظيم ، وإن كنت قد أسهبت في القول حتى أضعت
علينا درسنا اليوم .. وما لبث الشيخ أن قام من مقامه بعد أن
وعد مريديه أن يعوضهم عما فات عليهم اليوم في يومهم الآتي
.. وانفرط عقد الجماعة وهم يداعبون بعضهم بعضاً مسرورين
بنبأ زميلهم .. مغتبطين بوعده شيخهم .

المجلس الرابع والعشرون :

وحينما جلس الشيخ إلى مجلسه في ليلته التالية.. تقدم إليه أحد المريدين بسؤال عن أثر الوراثة والبيئة في مخلوقات الله.. وأيهما أقوى تأثيراً وأشد تغلغلاً في النفوس ؟ قال الشيخ : فإنه لسؤال هام يستحق الوقوف عنده والتفكير فيه قبل الإجابة عليه .. ولعلك - يا بني - تشير إلى الحديث الشريف الذي يقول بأن « كل امرئ يولد على الفطرة وأبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه » ، أو كما قال الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .. فهذا الحديث دليل على أن فعل البيئة في المخلوقات العاقلة أشد وأقوى من فعل الوراثة وإن كان لا يدل على عدم تأثير الوراثة بالمرة .. وهناك الآية الكريمة عن الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام فأنكر عليه موسى نبي الله ورسوله هذا العمل فأخبره الخضر في نهاية المطاف أن الغلام فاسد العقيدة والخلق .. وأن له أبوين مؤمنين لو تسلط عليهما لأرهبهما طغياناً وكفراً ، ثم قال له : « وما فعلته عن أمري »

يعني أنه مأمور من الله ذي الجلال بما فعل . فهذا ابن أبوين
مؤمنين قد تحدر منهما غلام كافر . كذلك هو ولد نوح عليه السلام
، فإن الله يقول له لما ستشفع فيه وقال لربه إنه من أهلي . قال له
سبحانه : « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » كل هذا يدل
دلالة قاطعة على أن أثر البيئة أقوى من أثر الوراثة .

والأطباء لا ينكرون هذا بل يعترفون له كنتيجة لأبحاثهم
الطويلة في السلالات والأجناس . وكل ما نخلص إليه من هذا أن
كليهما .. الوراثة والبيئة مؤثر ولكن تأثير البيئة أقوى ولا ريب
.. ويظهر أن أثر الوراثة في السلالات هي أقوى ما تكون في
الملامح الجسدية فكثيراً ما نرى فتى أو فتاة ما فملك برؤيتهما إلا
نسبتهما إلى أحد أبويهما ممن نعرف .. على أنني بعد التفكير
الطويل في هذه المسألة اهتديت إلى نظرية لعلها أن يكون لها من
الصواب نصيب .. هي أن الحكمة الإلهية التي تجعل إلى جانب
كل حرمان منحا .. تلك الحكمة التي ميزت الإنسان على سائر
المخلوقات الأرضية بالعقل والإرادة قد خففت كثيراً من تأثير

الوراثة في الآدميين لتفسح المجال لخصائص هاتين المزيتين . من أجل ذلك كان تأثير البيئة شديداً في الإنسان بطبعه وعقله وإرادته وبامتزاج كل ذلك بالاختلاط حسناً وقبحاً .

أما الحيوانات فإن أثر الوراثة فيها هو الأقوى فالذئب لن يمتنع عن الافتراس لأنه من صلب ذئب وهكذا ينجر القياس على كل الحيوانات مفترسة وغير مفترسة .. كذلك هو الحال في النباتات فإن بذرة البرتقال مثلاً لا تنتج تفاحاً وهكذا يمكن القول على وجه التعميم والقطع في كل ألوان النباتات .. ولست أدري .. أصواب هو هذا التفكير أم خطأ ؟ ولعل فيكم من يفكر فيه فيعمل التفكير ليهتدي إلى الحق الذي لا يجادل .. وتأهب الشيخ للقيام بعد أن رمى السائل بنظرة جانبية وكأنه يقول له : أنت أجدر منهم جميعاً بأعمال الفكر حتى نصل سوية إلى الحقيقة التي ننشدها .. وحنى المرید رأسه أمام نظرة شيخه وكأنه يقول له : « وأين الثرى من الثريا يا سيدي العزيز »

المجلس الخامس والعشرون :

وفي الليلة التالية كان السؤال من أحد المريدين عن المرح والحزن وتغلب أولهما على بعض النفوس وتغلب الثاني على بعضها الآخر .. ما سبب ذلك ؟ ما سره الأزلي منذ بدء الخليقة حتى اليوم ؟

وسكت الشيخ قليلاً وكأنه يتأمل ويفكر قبل أن يتكلم .. ثم تدفق بحديث طويل ممتع شائق .. قال يا بني : لقد خلق الله الناس أطواراً كما قال في محكم كتابه ، فمنهم من يغلب عليه المرح ومنهم من يغلب عليه الحزن ، ونرجع إلى حديث ليلتنا البارحة فإنني لأشعر أن ثمة علاقة وثيقة بينه وبين حديث الليلة ، فلعل للوراثة علاقة وثيقة بالمرح والحزن كما للبيئة .. فالطفل الذي ينحدر من أبوين مرحين وينشأ وترعرع في هذا الجو ببيته - وهو البيئة الأولى لكل إنسان - فإنه لا ريب سيشب مرحاً سواء أكان في بيت غني أو بيت فقير فالمرح في أغلب حالاته لا يرتبط كثيراً بالغنى والفقر فكم من غني مكتئب .. ومن فقير مرح ..

كذلك هو الطفل الذي يشب ويتربى في بيت حزين .. فالطفولة عادة تتلقف ما تشاهد وما تسمع وتتكيف مع ما تتلقف أكثر من الشباب والكهولة .. كذلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .. وهذه القاعدة لها شواذ ككل القواعد .. فلقد يلد المرحان حزناً بطبعه كما قد يلد الحزينان مرحاً .. على إن تجاربي الطويلة في الحياة هذه قد دلّني على أن أسباب الحزن في هذه الحياة أكبر بكثير من أسباب المرح . فإننا لنسمع ونشاهد أمام كل نبأ وكل منظر سار ، عشرات من الأنباء والمشاهد المحزنة المؤلمة .. نسمع ونرى هذا في الأفراد كما نسمعه ونراه في الجماعات وفي الأمم والدول .. ولعل أطماع البشر وتنافسهم وتحاسدهم هو السبب في هذه الظاهرة .. وإذا نحن تتبعنا أخبار سلفنا الصالح الذي كان ينظر إلى هذه الدار كجسر ننقل منه إلى دار البقاء .. وإذا نحن عرفنا أن الأعمال الصالحة تتعب وتجهّد كما أن طريقها ليس ممهداً وأن الأعمال السيئة غير متعبة ولا مجهدّة .. وإذا أمعنا في الحديث النبوي الشريف .. حفت

الجنة بالمكارة .. وحفت النار بالشهوات .. والحديث الآخر الذي يقول : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .. والثالث الذي يقول : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .. إذا نحن أمعنا في كل هذا فإننا سنعرف السبب في تغلب الحزن على المرح في حياتنا هذه .. والحق إن الطبع المرح والطبع الحزين كلاهما لا يستطيع أن ينفك من ريقته لأن الطبع لا يمكن لصاحبه أن يتخلص منه وإن أحس منه بوطأة الألم والشقوة .

وأما دليل آخر على غلبة الحزن على المرح ولا سيما في أفاذ الرجال والنساء منذ أن فطر الله الناس . فالكثرة الكاثرة من الفلاسفة والمفكرين والشعراء والفنانين يغلب عليها الحزن وهو وليد التفكير والتأمل الطويلين ، وهذا لا يمنع أن قلة منهم ذات طباع مرحة وإن بانَّت تتكلف المرح تكلفاً للتغلب على بأسائها .. كما إن الكثرة الكاثرة من اللاهين المرحين هم من سواد الناس الذين لا يتميزون بتبريز وتفوق .. وهي أيضاً كثرة لا تسلم من قلة مغايرة .

وبعد فإن البحث في هذه الناحية بحث طويل . وقد نعود
له في فترة أخرى بتفصيل وتمحيص أكثر .. على أنه يحسن بنا
أن نختتم حديث الليلة بقوله سبحانه على لسان أصحاب الجنة
بعد أن أصبحوا من الفائزين .. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن
.. يقصدون بما يقولون الحزن في هذه الدار التي تنطوي على
الأكدار أكثر مما تنطوي على المباهج .

المجلس السادس والعشرون :

حينما أخذ الشيخ مجلسه في الليلة التالية كان أحد مریديه في جدل هامس مع من حوله من المریدین .. وكان يبدو على وجهه عدم الاقتناع بما انتهى إليه الحديث .. ولاحظ الشيخ هذا منهم فقال لهم : أراكم آخذین بأطراف حديث لم تصلوا فيه إلى قناعة فهل لي أن أعرف ما هو ؟ قال له المرید الذي بدأ البحث مع لداته : فإننا أيها الشيخ الجليل نتحدث عن المديح والهجاء في الشعر العربي وقد اختلفنا في اتجاهاتنا حولهما اختلافًا كبيراً .. أو على وجه الدقة قد اختلفت أنا مع رفاقي حولها فلي وحدي رأي فيهما أنفرد به ويخالفني فيه رفاقي . قال له الشيخ فابسط لنا الحديث لنتعرف عليه وعلى وجهات النظر فيه .. قال المرید : فإنني أرى أن في بعض المديح والهجاء في الشعر العربي لوحات فنية رائعة لا ينبغي لنا أن نشيح عنها أو أن نحذفها من كتب التراث لنفاستها ويخالفني بعض رفاقي في الرأي وللشيخ فينا رأي لا يرد ومشيشة لا تنقض فهل نطمع في أن يعطينا

الشيخ رأيہ الفصل في هذا الخلاف ؟ قال الشيخ : فإننا سنخرج اليوم بأحاديثنا العلمية والسياسية الجافة إلى روضة أنف تتخايل بها الأزهار والثمار وتطرب الجداول والغدران والطيور بخريها وأحانها ، ويضوع الشذى فترتخي أعصابنا بعد توتر - لقد أدخلتنا اليوم - يا بني - في واحة ظليلة خضراء تقينا حر الهجير وتريح أبصارنا من القفار الحديبية .. وإذا كان لا بد لي من الكلام في هذا الموضوع الشائق فياني لأحاول أن أبسط لكم رأياً لي قديماً فيه .. سئلت عنه فأجبت وكان الجواب يومها مثار جدل شديد ..

إن الشعر في أدبنا العربي هو خلاصة الرحيق منه .. ولقد برز في التاريخ العربي قديمه وحديثه شعراء موهوبون متفوقون .. وكانت الدولتان الأموية والعباسية تشجعان الشعراء وتثيبهم وتكرمهم بحيث تتيح لهم مجال التنافس ، ثم جاءت بعض الدول الإسلامية في الأندلس وفي الشام والعراق ومصر وحذت حذو بني أمية والعباس في تكريم الشعراء وصلاتهم مما نجم عنه

ازدهار للشعر ونبوغ فيه إذا كان الشاعر موهوباً بالفطرة . فليس الشعر علماً يتلقن وإنما هو مواهب يكرم الله بها بعض عباده .. فأما في الجاهلية فلقد كان التنافس بين القبائل والتخاصم والغزوات الدائمة من كل قبيلة أو مجموعة متحالفة من القبائل ضد خصومها المتحالفين أيضاً هو السبب الأكبر في بروز عدد من الشعراء المتفوقين كانوا ينافحون عن قبائلهم ويفخرون بها ويقدمونها على من عداها من سائر القبائل .. وكان لبعض شعرائهم صوت مسموع يثلج قلوب عشيرته ويحز في قلوب خصومها ، وكان لكل قبيلة شاعر يرد عنها ويفاخر بها مما أعطانا صفحة شعرية مشرقة من الهجاء المتبادل يومذاك .. وكان للشعر سوق وحكام ومواسم .. ولقد بلغ من العرب في الجاهلية للشعر أن علقوا بعض روائعه داخل جدران الكعبة المشرفة فسميت تلك القصائد الغرر بالمعلقات تمييزاً لها وتكريماً .. والمتصفح لتاريخ الشعر العربي الجاهلي .. والدارس له سيجدان كنوزاً نستطيع أن نفاخر بها مثيلاتها في الآداب

العالمية الأخرى فما يخذلنا الفخر ولا الانتصار وكان الوقت قد
قارب انتهاءه فأرجأ الشيخ تكملة حديثه إلى ليلة قابلة وفي
نفوس مريديه لهفة على سماع بقية الحديث وتهيؤ عقلي
ووجداني له .

وفي العصر الأموي اشتهر عدد كبير من الشعراء ، ومن
أكثرهم شهرة وأبعدهم صيتاً الثالث المعروف جرير ..
الأخطل .. الفرزدق .. وكان هناك إلى جانبهم شعراء مبرزون
كجميل بثينة وكثير عزة وعمر بن أبي ربيعة والأحوص وتعربة
الحميري صاحب صاحب ليلى الأخيلية .. كما نبغ واشتهر في
العصر العباسي كذلك شعراء كثيرون من أبرزهم الحسن بن
هانيء .. أبو نواس .. وبشار بن برد ومروان بن أبي حفصة وأبو
العتاهية .. وكثيرون هنا وهناك .. ولعل الثالث الأموي الذي
أشرنا إليه آنفاً .. أشهرهم في المدح وفي الهجاء .. فلقد تهاجى
جرير والفرزدق هجاء مقذعاً .. وتهاجيا مع الأخطل .. ومدح كل
منهم خلفاء بني أمية فتركوا لنا .. في كثير من ذلك على

أقذاعه .. وفحشه وبعده عن الآداب العامة وعدم تخرجه من الخوض في الأحوال من أجل النصر على خصمه بأية أساليب .. تركوا لنا أدباً رائعاً ما ينبغي لنا بحال أن نهمله .. بل من الواجب دراسته فإنه بمثابة سجل أدبي قويم إلى جانب أنه يؤرخ لحقبة من ذلك العصر من الواجب أن نعرفها ونعرف حوافرها .. كما إن كثيراً من مدائحهم كان أدباً مشرقاً ضليعاً في أفانين الشعر وفي قوة العارضة وفي متانة الأسلوب وفي حسن التصرف بالثروة اللغوية التي كان يمتلكها أولئك الشعراء الأفذاذ .. وما تزال مدائح ذلك الثالوث وأهاليه حتى اليوم وعبر القرون الطويلة .. ما تزال تعد من الأدب الخالد الذي يصاول القرون .. أما الشعراء الغزليون في العهدين الأموي والعباسي فإن شعرهم من العذوبة والسلاسة والصدق بمكان رفيع وهو جدير بالخلود الذي ناله بالفعل . فلقد قرأنا أشعارهم وتأثرنا بها تأثيراً بالغاً وسيقرأها أولادنا وأحفادنا حتى يأذن الله بانتهاء الحياة على سطح هذا الكوكب .. ولقد كان أبا نواس - في العصر العباسي -

علمًا بارزًا من أعلام الشعر وإن غلب عليه المجون والاستهتار
الخلقي . لكنه من الناحية الفنية شعر نابض بالحياة وبصدق
الاحساس .. ومن الإنصاف لأولئك الشعراء العظام ، بل وللغتنا
العربية الخالدة .. من الأنصاف لهما .. أن نفصل بين الفن
والخلق وأن نعطي كل شاعر حقه وإن لمناه أشد اللوم حينما يخرج
بشعره عن الأدب وعن قواعد السلوك والخلق القويم .. لقد تفتح
الوعي في عصرنا الحاضر تفتحًا كبيراً وانتشرت المدارس
والجامعات التي تضع القواعد والأسس السليمة فلا تخلط بين
الفن وبين الخلق .. بل إنها تميز كلاً منها على حدة .. ليفطن
الناشئون إلى مواطن الجمال الفني في ذلك الشعر .. وفي كل
شعر .. وليعرفوا إلى جانب هذه الفطنة الجوانب التي جانب فيها
أولئك الشعراء قواعد الأخلاق وتخطوها .. ليستمتعوا بالفن
ويعزفوا عن الاستهتار .. بالتبذل الرخيص والملق المقوت في
المديح .. وبالولوغ في الأعراض ونهشها والانحطاط إلى أسفل
دركات الشتيمة والخصام في الهجاء .. وكما إننا نعلم إلى

السمة فناهذ بتنظيفها واستبعاد أشواكها وأقذارها للتمتع
بلحمها الشهي .. كذلك هو الشعر فإن فيه الكثير الطيب إلى
جانب المستهجن المسترذل .. فمن التجني أن نضرب صفحاً عنه
فيضيع علينا من الفوائد ما لا يقدر بثمن .. وما لا تعوضنا عنه
كنوز الأرض وكل مادياتها .

المجلس السابع والعشرون :

اكتمل مجلس الشيخ ومريديه في ليلتهم التالية .. إلا أنهم افتقدوا أحد المريدين فإنه لم يحضر بعد مع إنه كان من أشد المريدين حرصاً على الحضور في الموعد المحدد للاجتماع الليلي .. وكانت الجماعة بمثابة أسرة شديدة الترابط يحس بعضها بإحساس بعض فرحاً وترحاً ولا يكتمل انسجامها إلا باكتمال أعضائها .. وكان الشيخ بمثابة الرأس المفكر والصدر الحنون لكافة الأسرة .. أما المريدون فهم أعضاء هذه الأسرة التي يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص .. إن مسرة فرد واحد منها هي مسرة الجماعة كلها تسري بينهم سريان النشوة في النفوس بفعل مؤثراتها الحتم .. كذلك هو الألم أو الحزن وما إليهما من أرزاء الحياة ومكارهها .. فإن الجماعة كلها تتكافل وتتأزر عليه وتشارك فيه حتى ينتهي ككل شيء في هذه الحياة .. قال الشيخ لمريديه : أين فلان ؟ لقد تأخر عن مواعده وما كانت له عادة بهذا ، بل لعله كان أكثركم تبكيراً في الحضور حتى لقد قلت له

مرة مداعباً : إنك ستأخذ النمرة الكاملة في المواظبة .. وكررت له كلمة المواظبة مماًزحاً قائلاً .. المواظبة وحدها وإلا فقد يأخذ النمرة الكاملة فيما عداها سواك .. وبينما هم في حيرة وتساؤل إذا بأخيهم يهل عليهم وفي ملامح وجهه اهتمام سار .. أو مسرور مهتم .. وحيا شيخه ثم حيا زملاءه وأخذ مجلسه منهم . ثم تقدم إلى الشيخ باعتذاره عن التأخر قليلاً بسبب يراه جديراً بالوقوف عنده والتأمل فيه .. ولقد يراه جديراً بأن يكون حديث الليلة وحدثها .. وقبل أن يسأله أحد منهم عن سببه هذا الهام السار .. بادر هو بالقول فقال لشيخه : سيدي إنني كثيراً ما سمعتك تحدثنا بألم وحسرة عن الإسلام والمسلمين في ماضيهم الرفيع المتألق .. وحاضرهم المنخفض القاتم .. وتحدثنا عما أخذه الغرب من المآثر ومن الحضارة الإسلامية .. وتركناه نحن فنسب إليهم ونحن أحق به منهم لأننا نحن أصحابه وهم مقتبسون .. ولقد سمعتك تحدثنا ذات مرة عن العالم الجليل الشيخ محمد عبده الذي كان هو وشيخه جمال الدين الأفغاني .. وكثير من

أتباعهم البارزين .. من أعظم الدعاة إلى نهضة المسلمين من
كبتهم والعمل على أستعادة ماضيهم الوضيء .. ومن أعظم
الساعين بهمة وإخلاص لتطهير الإسلام من الشبه والبدع التي
ألصقها به كثير ممن ينتسبون إليه عن حسن نية .. أو عن سوء
قصد .. مما أساء إلى سمعته . وهي السمعة المدوية الطاهرة من
كل درن .. ومما جعل بعض المستشرقين المتعصبين يهاجمونه
بضراوة وهم يعلمون أن الإسلام بريء مما يقولون .. وأن هذا
الذي يهاجمون به الإسلام هو من عمل بعض المسلمين لا
من جوهر الإسلام خير الأديان السماوية وخاتمتها ..
سمعتك يا شيخى تقول إن الإمام محمد عبده حينما زار
أوروبا وعاد إلى مصر سألته كثير من أتباعه عما رأى
هناك .. وعن الفوارق ما بين هنا وهناك .. قال لهم الشيخ
كلمته الماثورة .. لقد رأيت بأوروبا إسلاماً ولم أر مسلمين ..
وأرى هنا مسلمين ولا أرى إسلاماً .. وكان الشيخ يقصد بقوله
الأليم هذا إن الأوروبيين قد أخذوا كثيراً من التعاليم

والتقاليد الإسلامية وعملوا بها بالفعل .. أما نحن المسلمين
فإننا مع بالغ الأسف قد تركنا هذه التعاليم والتقاليد
وأخذنا بما يغير روح الإسلام وجوهره .. وهذا صحيح كما
قلت لنا يومها .. أما ما رأيته فأهمني وأسرنى وأخرني عن
موعدى الذي لم أتأخر عنه قط فسأعرضه على شىخي
لأسمع ويسمع إخوانى منه كلمة الفصل فيه كما تعودنا جميعنا
منه فإننى لأراني قد استأثرت بمقدمتي هذه بالوقت كله
فمعدرة .. قال الشيخ وهو يتهيأ للقيام فإننا لنرتقب منك هذا
الشرح عما تقول فإلى اللقاء فى ليلتنا القادمة إن شاء الله .
قال الشيخ لمريديه وقد اطمأن إلى انتظام عقد
المريدين واكتماله .. قال له .. هات يابنى ما شهدت
بالأمس فأثار اهتمامك واغبتابك فإننا إليه لمشوقون ..
وما أعرف أحداً من أبنائى يهتم ويسر إلا بما يدعوا إليهما
بحق فأنا شديد الاعتزاز بكم جميعاً شديد الحب . وأشعر
أننى لو أنجبت من صلبى أبناء لما أحببتهم ولا اعتزرت بهم

بأكثر من هذا القدر الذي أحسه لكم بين جنبي .. فسرت
بين المريدين همهمة تنبىء بفرح غامر واعتداد بما قال
الشيخ فما عهدوه يقول هزراً من القول .. ولا عرفوه بالذي
يكذب على مشاعرها أو يزيّفها فهو دائماً صادق كل الصدق
صريح كل الصراحة ..

واعتدل المريد في جلسته ثم قال للشيخ وعيون
أترابه تحيط به كما يحيط النطاق بالخصر .. لقد رأيت
يا شيخي وأنا قادم إليكم سرياً من الفتيات ذاهبات إلى
مدرستهن .. وكن جميعهن يرتدين أزياء محتشمة تنطبق
على تعاليم الإسلام الراشدة .. ما عدا واحدة منهن فإنها
كانت ترتدي زياً يخالف أزياءهن من حيث الحشمة
والتوقر .. كان عدد الفتيات كبيراً . وسمعت واحدة منهن
تقول لتلك المتبرجة .. ماذا نرى منك يا أختاه ؟! ما هذا
المظهر الخليع الذي لا يليق بكرامتك .. ولا بأنوشتك .. ولا
بدينك .. لكأنك ذاهبة إلى عرس أنت فيه العروس أو

إحدى وصائفها .. وحتى لو كنت هذا فإن الشارع العام ليس مكانه .. إني لأرى الأبصار وهي تتناهيك فتبصر منك ما لا ينبغي أن تبصره فيزيدون تجاسراً عليك وطمعاً فيك .. إنك بهذا المظهر تعطينهم السلاح الذي يصوبونه إليك .. والأمل الداعر فيك وأنت كما نعرف كلنا من الطهر والعفاف بمكان لا ترقى إليه شبهة ولا تحوم حوله ريبة . فإذا قامت فإنما تبوء بالفشل وتعود بالخزي وقد عرفت أن ظنونها لم تكن بالصائبة .. فلماذا تفعلين هذا يا أختاه فتناقضين به طبيعتك النقية العيوف التي نعرفها عنك ؟ ألم تستمعي إلى الثقة من شيوخنا وشيخاتنا وهم يتحدثون عن الحجاب في الإسلام ويفصلونه تفصيلاً .. وهو حجاب منصف معقول غير متعسف ولا ظالم كما ترين فينا .. لماذا تطمعين فيك أولئك الذين في قلوبهم مرض وأنت تعرفين كما نعرف نحن أنهم لن ينالوا منك منالاً ؟

قال المرید لشیخه .. ونظرت إلى تلك الفتاة التي

شدت بمظهرها عن لداتها فإذا هي على خجل كبير مما سمعته
من إحدى زميلاتها وما ظاهرتها عليه بقية الزميلات ..
وإذا بوجهها يرفض عرقاً .. وإذا بها تعتذر لأترباها عما
بدا منها من طيش طفولي ما ينبغي له أن يكون لها وهي
مراقة .. قالت لهن .. سأعود إلى داري فأبدل من زي
وألحق بكن إلى المدرسة .. معذرة يا أخواتي وبارك الله
فيكن .. فشكرن لها استجابتها السريعة ، وذهبن إلى المدرسة ،
وعادت هي إلى البيت لتعود إلى مدرستها كأترباها في زي
محترم ..

لقد فرحت بما سمعت ورأيت فرحاً طاعياً حملني على
التأخر لأتابع هذه القصة التي تبشر بخير كبير بالنسبة
لفتياننا وفتياتنا ثم آتيكم منها نبأ ..

قال له الشيخ : فإننا جميعاً لنشاركك في فرحتك
هذه ونعذك على التأخير فلقد جنيت لنا به جنى حلواً نافعاً
بارك الله فيك . وجعل هذه الظاهرة الإسلامية الكريمة تنفشي

بحيث تشمل كل ناشئتنا ذكراناً وإناثاً .. فأمن المريدون على
دعاء الشيخ ثم تاهبوا للقيام . وقد رأوه يتأهب له .. ليعودوا
من ليلتهم التالية إلى مجلسهم الذي ينضح بالعلم والمعرفة
والثقافة والخلق .

المجلس الثامن والعشرون :

في الليلة التالية وبعد أن اكتمل جمع المريدين وأخذوا في أحاديث شتى ريثما يحضر الشيخ أهلت عليهم طلعتة البهية وعليها بشاشة واغتنباط يكادان يخرجان الشيخ عن سمته المعتاد .. سمت الوقار المهيب المتحفظ .. فعجب لذلك المريدون وإن أدخل على أنفسهم السرور .. قال قائل منهم لصحبه : والله لأتجاسرن على الشيخ فأسأله عن أسباب ما نراه عليه وإن كنت لم أعود مثل هذا الاقتحام على سريره .. قالوا له فإنك لتعبر عما يخالج نفوسنا فتعجب له وتسر منه .. ولحق الشيخ منهم ما يساورهم وما كان تهامسهم ينم عليه فابتدروهم قبل السؤال قال : لقد ملأ حديث الليلة البارحة نفسي فرحاً وبت فيها آمالاً عذاباً .. ذلك الحديث عن الظاهرة الإسلامية التي بدت بوضوح على ناشئتنا وهم عدة المستقبل وذخر العقيدة والوطن .. فالدعايات الهائلة المضللة .. والزحف العقائدي المنكر بكل الوسائل وبكل المغريات قد أثرت في الجيل الجديد تأثيراً سيئاً فشككته قي

عقيدته التي لم يدرسها دراسة جيدة تقيه من المزالق . ولعل مرد هذا هو النقص الخطير في البرامج التعليمية التي كانت تفتقر افتقاراً شديداً إلى مادة الدين منذ نعومة أظفار أولادنا . والذي تخلصنا منه - ولله الحمد - اليوم فحفلت برامج التعليم في كل أدواره بالمادة الدينية التي توجه الناشئة توجيهاً دينياً سليماً وتعصمهم من فتنة أولئك المضللين الذين اندفعوا لكافة الأقطار الإسلامية تحت شتى المؤثرات بما فيها بذل ألوف الملايين في هذا السبيل من قبل أعداء الإسلام الذين يكيدون له خشية انتشاره .. لأن في هذا الانتشار القضاء على كثير من الزعامات الزائفة والمصالح الحرام .. ولهذا نرى اليوم أولادنا وقد أقبلوا على الدين يتفهمونه بعد الدراسة والتوجيه الرشيد ..

لقد جمعتني الظروف الطيبة يوم أمس برهط من رجال التعليم ومن رجال الدين الذين يقومون بالوعظ والإرشاد في الداخل .. وفي الدعاية للإسلام وتوضيح مناهجه وسبله وأهدافه وأغراضه في الخارج .. توعية وهداية وإرشاداً .. ومناهضة

للسيل العرم من المستشرقين والمبشرين الذين يتظاهرون بالعلمانية تارة .. وبالتقوى تارة أخرى .. وينتشرون في كافة البلدان الإسلامية انتشاراً مفرغاً فيدسون السم في العسل .. ويدعون باسم الله .. والله بريء مما يدعون إليه .. هؤلاء الذين يفدون إلى بلاد الإسلام ببواعث شتى .. من عقيدة منحرفة زائفة متعصبة يدعون إليها سرّاً وجهراً .. ومن اغراءات مالية تغريهم بها الجمعيات اليهودية والمسيحية والملحدة .. اجتمعوا كلهم على مناهضة الإسلام والكيد له كيداً يظنون أنهم يصرفون به الناس عن الإسلام .. يريدون أن يطفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كرهوا كما جاء في محكم التنزيل .. كل هذا والإسلام ثابت كالطود الراسخ ، والمسلمون - إلا أقل من القليل - ثابتون بقوة . وهم برغم ضعف الدعاية للإسلام والتبشير به في كافة أصقاع الأرض بالنسبة لدعاياتهم المنتشرة في كل مكان والمؤيدة مادة ومعنى من جمعيات عديدة عتيدة تقدمهم بالمال وغير المال وتضاعف من عددهم بين آونة وأخرى .. برغم كل هذا فإن

الإسلام والمسلمين بخير والحمد لله . ذلك لأن عقيدتهم سمحة واضحة تجمع لهم بين خيري الدين والدنيا ، وليس معنى هذا أن نكتفي به فلا نعمل على انتشار الإسلام والدعاية له ومساعدة أهله في كل زمان ومكان .. كلا فإن هذا العمل هو من أوجب واجباتنا كمسلمين حريصين على أن تكون كلمة الله هي العليا .. ونظر الشيخ إلى ساعته فعرف أن الوقت قد انتهى به وبمريديه فانفض مجلسهم لينتظم من غده كعادته .

المجلس التاسع والعشرون :

وفي الغد والنسيم سجسج عليل .. والليل صاف مؤتلق
تلتمع نجومه كما يلتمع العقد الوضيء في عنق الزنجية الحسناء
.. تحلق المريدون حول شيخهم وكأنما عذوبة الليل ولطف الهواء
قد مساهم بعضاً سحرية فملأتهم نشاطاً وحيوية وتوثباً وارتقاباً
للغذاء الروحي المعتاد .. كذلك هو الشيخ قد كان .. فإن
الطبيعة حق مشاع لكافة الخلق .. ومتاع يعم فيه النصيب
ويشمل ولا يقل ويختص . فلقد كان الشيخ طلقاً مرحاً تتألق
عيناه بوميض العبقرية ممتزجاً بوميض الحبور ، وسبحان الله
العظيم فإن الطبيعة برقتها وخشونتها .. بصفائها واعتكارها
تنعكس على تصرفات الخلق أجمعين حتى الحيوان والجماذ أو ما
نظنه جماد وهو يشعر ويتحرك بإذن ربه من حيث لا نشعر نحن .
وصدق الله العظيم « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا
تفقهون تسبيحهم » والعلم يثبت هذا بكل صدق وجلاء ، ولئن
توصل - وأعني العلم - اليوم إلى الحياة التي تدب في النبات

بشتى ألوانه فإنه ولا ريب سيتوصل في غده القريب إلى
اكتشاف ومعرفة كنه الحياة التي تدب في الجماد .. في الصخرة
الصماء وفي القفر الجديب وما إليهما مما لا نحس بحياته ولا
نعرف جوهرها ..

كان شيخنا - إذن - منسجماً مع الطبيعة في تلك الليلة
الحلوة من ليالي الربيع .. فداعب مريديه وتلقوا هم
دعاباته بالبشر والابتهاج .. ثم قال الشيخ : أحسبني في
ليلتنا البارحة قد اضطررت اضطراراً إلى اقتضاب الحديث
وبتره .. فلقد انتهى وقتنا الذي نحدده لجلساتنا هذه .. وما
أردت أن أشق عليكم بالاستمرار وطول المكوث فإنني لأعرف
أن لبعضكم سعياً في مجالي الحياة ومجالاتها .. يضطره
إلى أن ينصرف إليه ، فما له من هذا محيص . لقد يكون
هذا السعي البار لنفسه ، ولقد يكون لأهله ولمن يعول فمن
الواجب الحتم أن لا نصده عنه وأن لا نشغله بما سواه ..
وتعالت صيحات المريدين في أدب واحتشام وهم يؤكدون

لشيخهم أن مجلسهم هذا لا يعدله شيء في حياتهم .. وأن كل ما عداه مستدرك غير فائت ولئن فات فإن لهم أعظم العوض وأغلاها بهذه الجواهر النفيسة التي يلتقطونها التقاطاً من شيخهم فتكون لهم نعم الذخر في حياة ما أتفه جانبها المادي وما أحقره .. وهي إلى هذا حافز منشط لاستدراك الفائت أضعافاً مضاعفة فليمد الله في حياة الشيخ ، وليزده من نفحاته ورضوانه كفاء ما يزودهم به من زاد هو أكرم وأشهى زاد في الحياة .. وتبسم الشيخ وجمجم بكلمات شكر لمريديه وقال لهم وعيناه مغرورقتان بالدمع : يا أبنائي سأوجز لكم ما سمعته في ليلتي المنصرمة من بعض المربين والوعاظ المتنسكين الذين نذروا أعمارهم لله ولرسوله ولخير الإسلام ورفعته وانتشاره وتنقيته من الشوائب التي ألصقها به أعداؤه .. لقد قالوا لي أن طلبتهم من الشباب سواء منهم الجامعيون أو من هم في سبيلهم إلى ولوج الجامعة .. قالوا بأنهم لمسوا في هؤلاء الشباب روحاً إسلامية

خالصة ، واندفاعاً إلى الدراسات الإسلامية ، والتخلق
بأخلاق الإسلام .. إن أكثرهم بدأوا يصلون ويصومون
ويتأملون في خلق الله .. ويستكثرون من مطالعة الأسفار
التي تترجم لكبار المسلمين وعظمائهم من السلف والخلف ..
وبعضهم يتلهف شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله وطرد
اليهود المغتصبين من بيت المقدس ومن كافة الأراضي العربية
الحبيبة العزيزة .. ليس بدافع قومي فحسب بل أيضاً بدافع
ديني نقي خالص النقاء ، وهذا هو شأن الأكثرية منهم .. أما
القلة الباقية فهي في طريقها إلى ورود هذا الحوض العذب
السلسل .. حوض الدين .. حوض الإسلام لتنهل منه ما
استطاعت ولتتذلل بعد ذلك جوانبها بالإيمان والرجوع إلى
الله بعد إباق .. أليس هذا الحدث الذي شاء الله له أن
يكون في عصرنا هذا .. عصر المادة والإلحاد والزندقة
والتهرطق .. أليس هو من أعظم الأحداث التي نشهدها اليوم إن
لم يكن أعظمها على الإطلاق .. قال المريدون له بصوت واحد

كأنما يصدر عن فم واحد : بلى .. بلى أيها الشيخ الجليل ..
أعزك الله وأعز الإسلام وأعزنا به .. وقاموا بعد هذا إلى
شيخهم يحيونه ويلثمونه بحب واحترام قبل أن ينصرفوا من
مجلسهم هذا .

يعرف المريدون أحاسيس الشيخ كأنهم يقرأون في كتاب
واضح السطور . فلقد كان وجه الشيخ كالمرآة الصقيلة تكشف
عما وراءها ببيان .. فإذا كان متطلق الوجه مشرق المحيا بسام
الثغر نم هذا عما يخالجه من اغتباط واطمئنان ، أما إذا كان
مكروباً ضيق الصدر فإن وجهه يدل دلالة منظورة على ما يكابد
من شجون ومكارب .. والشيخ لا يغتبط إلا لخير ولا يكتئب إلا
لشر .. ولما كان كل شيء في هذا الوجود نسبياً فإن هذه النسبية
تظهر على الشيخ بقوتها أو بضعفها .. أما في ذلك اليوم فلقد
كان هم الشيخ بين بين فهو مبتسم مقطب .. منبسط منقبض ..
وفي مثل هذه الحالة يصمت المريدون حتى يبدأ شيخهم بالحديث
.. فهم لا يبدأونه بالقول إلا إذا آنسوا منه فرحاً غامراً .. أو

هما مبرحًا ، فهي حالة تخيفهم خشية على صحة الشيخ الغالية من الارهاق . فبعض الفرح له نفس تأثير بعض الغم إذا استشار الأعصاب وهيج المشاعر ، لهذا صمت المريدون كعادتهم حتى يتكلم الشيخ . ولقد تكلم بعد صمت قصير .. قال :

من عادتي - يا بني - أن أصلي الجمعة كل مرة في مسجد غير الأول .. إلا إذا كنت بأحد المسجدين الأعظمين - الحرام والنبوي - فهما مما لا يقارب بهما مسجد في الدنيا كلها .. فلقد سمعت أنه قد ورد في الأثر أن الأماكن تشهد لأصحابها بالعبادة يوم القيامة .. وخير الأماكن - ولا رب - بيوت الله .. فأنا أتوق إلى أن تشهد لي مساجد كثيرة وأماكن شتى بغشيانها للعبادة .. هذا إذا تفضل ربي فقبل مني عبادتي له . فإن رضاه - سبحانه - ليتأتى بما قد لا نعلمه .. أو إننا نعلمه فنحسبه هينًا وهو عند الله عظيم .. وجوهر العبادة هو الإخلاص والخضوع الكامل له سبحانه ، ولجلاله بعدئذ أن يتقبل أو أن يرفض فهو العليم بذات الصدور .. وإن كنت على وثوق يشبه اليقين ، أن

ربي سيستقبل مني ومن كل عباده المخلصين قبولاً حسناً وهو ما
نبغيه جميعاً وما نسعى إليه مفوضين الأمر بعد ذلك له وهو
الأعز الأكرم ..

ولقد صادفت في أدائي لهذه الجمع بشتى المساجد ما يسر
وما يسيء إلى النفوس المؤمنة بربها .. فأما ما يسر وهو الأكثر
ولله الحمد والمنة ، فهو الكثير من خطب الجمعة التي أخذت تركز
على المشاكل والأحداث المحيطة بالمجتمع المسلم ، تركيزها على
الأمر الدينية والوعظ الحسن .. فأخذ الناس يسمعون من بعض
الخطباء استعراضاً للمشاكل الدينية والدنيوية .. وحلولاً لها
بحسب المستطاع الذي يتوصل إليه الخطيب باجتهاده ولا سيما
أولئك المثقفين منهم بعلوم الدنيا والدين .. ولقد سمعت أنا ما
أثلج صدري وأعطاني البشري بأننا معشر المسلمين إلى خير ..
وإن الوعي قد تفتح أوكاد فتفتحت به البصائر واستنارت
الأفكار وأخذ الجمهور العربي والجمهور المسلم يحاور ويناقش
أحداث الساعة بفهم وبإلمام جيد ، وهذا لعمرى مما تقر به العين

ويسعد الفكر والضمير والوجدان . على أن الجانب الذي استرعى
نظري هو ما سأحدثكم به في الغد إن شاء الله فإنني لا أشعر أن
وقتنا المحدد لجلساتنا المعتاد قد انتهى .. فسلام الله عليكم
ورحمته وبركاته في انتظار الغد القريب .

المجلس الثلاثون :

وأهل الشيخ بطلعته على مرديه في الليلة التالية وهم
آخذون فيما يأخذ به الناس فيه من حديث عن الحياة والأحياء ،
فلما رأوا شيخهم هبوا وقوفاً احتراماً له وتقديراً لمنزلته منهم .
ولما اطمأن بالشيخ مجلسه قال : فإنني بحول الله سأتم حديثي
بالأمس عن خطب الجمعة وخطبائها ، ولقد ختمت حديثي بقولي
إنني لاحظت في كثير من هذه الخطب على جلالها ومعالجتها
لشؤون الدنيا والدين .. أن الخطباء لا يلحنون في هذه الخطب بل
يؤدونها أداءً عربياً فصيحاً وسليماً .. إن اللحن - يا بني - ولا
سيما من العلماء ومن يتصدون للوعظ والإرشاد هو خطيئة كبرى
لا يرضاه الدين ولا ترضاه اللغة العربية لغة القرآن .. ولقد كان
العرب في صدر الإسلام يتخرجون أشد تخرج من اللحن ويرونه
شيئاً معيباً ما ينبغي أن يقع من أحد وإلا عدوه من الدهماء
والجهلة ، وكان شاعرهم يقول :

ينادي ربه باللحن ليث فذاك إذا دعاء لا يجاب ا

أرأيتم أنهم كانوا يرون اللحن منقصة قد تؤدي إلى أن لا يقبل الله دعاء صاحبها .. وفي حديث أبي الأسود الدؤلي مع ابنته حينما قالت مرة وهو يسمع ما تقول : ما أحسن السماء .. فقال لها : نجومها . قالت له : يا أبت ما إلى هذا قصدت .. إنما قصدت التعجب .. قال لها : إذن افتحي فاك .. أي قولي .. ما أحسن السماء .

هكذا كان أسلافنا يحرصون على عدم اللحن صيانة لهذه اللغة المجيدة المعطاء .. فما أوسعها وأعمقها واستجابتها لكل مطالب الحياة لو إنا أحسننا دراستها والتضلع بها . وتسامحنا في اللحن عقوق للغتنا ولديننا الخفيف الذي جاء بها مشرقاً ناصعاً معصوماً من اللحن والخطأ .. ولهذا فإنني - يا بني - حينما خدش أذني لحن بعض خطباء الجمعة وهم يقومون على المنابر في بيوت الله .. شعرت بضيق شديد وبألم بالغ .. وحينما سمعت اللحن في بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية الشريفة اقشعر بدني وضافت بي الأرض وكدت أغادر المسجد

قبيـل الصلـاة إلى مسـجد آخر لا يجـرح سمـعي فيه لـحن مقـيت
كهـذا .. إلـا أنـني اصـطبرت وقلـت لنفـسي .. لعل هـذا اللـحن
كان خـطأ من الخـطيب لم يشـعر به فإـذا هـو شـعر بادر
بإصـلاحه وعـدم الوقـوع فيه كـرة أخرى .. وأسـررت في
نفـسي أن أقـوم إلى الخـطيب الإـمام عـقب الصلـاة فأهـمس إليه
وأنا مسـتفرد به بما كان من لـحن قـبيح فيـما لا يجـوز اللـحن
فيه بحـال من الأـحوال .. في القـراءة والحـديث ، وأقـول له
بلطف بالـغ أن خـطبتـه كانت قـيمة ونافـعة لولا هـذا اللـحن
الطارئ . وحينـما انتهت الصلـاة وأقـفر المسـجد من روادـه إلـا
القلـيل .. وكاد الشـيخ الإـمام الخـطيب أن يغادر المسـجد
بدورـه .. جئت إليه واستوقفتـه وتحدثت إليه بـركة بعـد أن
أطـريت خـطبتـه .. قلت أيها الشـيخ الجـليل لـقد بدر منك عن
غـير قصد ولا شك بـعض اللـحن فيـما ينبـغي لنا أن نتـحرج فيه
كل التـحرج ، وأن ندقـق فيه كل الدقـة ، ولـقد أـمرنا من
الرـسول الأعـظم صلوات اللـه وسلامـه عليه بالنـصح ومحاوـلة

إصلاح الأخطاء ما استطعنا السبيل إلى الإصلاح وقال :
الساكت عن الحق شيطان أخرس .. أو كما قال عليه الصلاة
والسلام .. ثم أنبأته بما سمعت .. أتدرون يا بني ما حدث ؟!
أي وربي لقد رأيت الخطيب الإمام وقد تغير وجهه غضباً ثم
قال لي بصوت جاف خشن .. يا أخي أنا أستاذ اللغة العربية
بمدرسة .. وأنت غلطان فأنا لا ألحن ولا يقال لمثلي هذا الكلام
الذي لا أقبله .. ثم أدار إلي ظهره وانصرف محنقاً مزدرئاً ..
فتركته بدوري وانصرفت وأنا أحوقل وأضرع إلى الله أن
يوفق ولاية الأمور إلى تقويم هذا الإعوجاج الخطير بحيث
لا يؤم الناس ولا يخطب فيهم إلا مثقف متنور ذو خلق قويم لا
يضيق بالنصح ولا يجرح المسامع باللحن القبيح ..

كان رمضان المبارك في أيامه الأخيرة .. وكان الشيخ يؤثر
في عشره الأواخر الانصراف إلى العزلة والعبادة والتأمل ..
فاستأذن مريديه في ذلك فأذنوا له وهم كارهون فقدم لهم في
دروسه من المنافع والمتع ما لا يعدله شيء في الحياة .. فإلى

اللقاء في عام جديد ورمضان جديد إذا أذن الله أن نكون على
قيد الحياة .. والآن اللهم اجعلنا ممن كتبت لهم سابقة الحسنى ..
وختمت لهم بخاتمة السعادة .. إنك أنت السميع المجيب .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* الشيخ الفيلسوف	٥
* المجلس الأول	١٣
* المجلس الثاني	١٨
* المجلس الثالث	٢٣
* المجلس الرابع	٢٨
* المجلس الخامس	٣٤
* المجلس السادس	٤٠
* المجلس السابع	٤٦
* المجلس الثامن	٥٣
* المجلس التاسع	٥٩
* المجلس العاشر	٦٦
* المجلس الحادي عشر	٦٩

٧٢	* المجلس الثاني عشر
٧٧	* المجلس الثالث عشر
٨٣	* المجلس الرابع عشر
٨٦	* المجلس الخامس عشر
٨٩	* المجلس السادس عشر
٩٢	* المجلس السابع عشر
٩٥	* المجلس الثامن عشر
٩٨	* المجلس التاسع عشر
١٠٢	* المجلس العشرون
١٠٥	* المجلس الحادي والعشرون
١٠٩	* المجلس الثاني والعشرون
١١٣	* المجلس الثالث والعشرون
١١٧	* المجلس الرابع والعشرون
١٢٠	* المجلس الخامس والعشرون
١٢٤	* المجلس السادس والعشرون

تم فسخ هذا الكتاب من المديرية العامة للمطبوعات

برقم ٥٢٩٧ وتاريخ ١٤٠٣/٩/١٦ هـ

* كلمة الناشر *

أما الكاتب فهو الشاعر الكبير محمد حسن ققي الذي أصدر حتى الآن ثمانية مجلدات من ديوانه ، فضرب بذلك رقما قياسيا ، مع الجودة والإبداع .

وهذا الشاعر الفذ لا يقتصر إبداعه الأدبي على الشعر فحسب ، بل هو كاتب ناثر من طراز ممتاز ، ومفكر عميق الفكر ، كما يدل على ذلك هذا الكتاب ، الذي يمتلىء رغم صغر حجمه ، بحشد من الأفكار المتميزة ، والتأملات العميقة .

ولم تكن هذه المرة الأولى التي تصدر فيها دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، هذه الأفكار الرائعة للأستاذ الكبير ، فقد أصدرت له من قبل في العدد ٢٣ من سلسلة المكتبة الصغيرة كتيب فيلسوف .

ويعد هذا الكتيب الجديد رمضانيات فيلسوف امتدادا للتأملات الأولى ، ولكنها امتدادات رمضانية ، من وحي الشهر المبارك ..

وقد جرت عادة دار الرفاعي في مثل هذه الكتيبات أن تقدم الكاتب بقلمه وبخطه ، وقد فعلت ذلك في الكتيب الأول ..

الناشر